وأستحضره وأؤمنه مما يحذرة ، وتبقى هـذه السـنة عليه حـران والرها ، وتشد من رجائه بذلك ما وهي ، وتعطيه في السنة الاخـرى حماة والمعرة ، وتكفى المضرة والمعرة ، ثم قرر السلطان مـع أخيه العادل ان يأخـذ تلك البـلاد ويحـويها ، ويملك حـوزتها ويحميها ، ويكف عنها ويكفيها ، واسـتقر ان ينزل عن اقـطاعاته بمصر ونصف خاصه ، واذا اخذ تلك البلاد فما يجـاوره يجتهـد في استخلاصه ، فأبدى على الرضـا بـذلك وجـه كراهيتـه واعتياصه ، واستزاد قلعة جعبر، فتمنع الملك الظاهر من تسـليمها حتى استظهر من ابيه بأضعافها واستظهر وتقرر مسير الملك العادل في العشر الأول من جمـادى الأولى . وكتـب السـلطان بعـود الملك الأفضل فجاء هذا راجعا ، وذهب ذاك مسارعا ، ووصل الى حران والرها ، ففاز من تدبيره بالنجح المشتهى ، وبلغ من مراده الى أمد الأمل المنتهى ، وعاد في آخر جمادى الآخرة وقد استصحب ابن تقي الدين ، ووصل في هذا الشهر الى دمشق ابن صاحب الموصل مجاهد الدين يرنقش ، واجتمعت بدمشق في هذا الشهر عساكر بها الاسلام يأنس ، والكفر يستوحش ، وأقامت تنتظر مسير الملك العادل لتسير في خدمته ، وتتجلى راياتها في مطالع رايته .

ذكر رحيل ملك الانكتير صوب عكا مـظهرا أنه على قصد ثغر بيروت

لما تعذر على الفرنج قصد القدس ، وعرفـوا أن مـرضهم بـه في النكس ، ورأوا ان ثغر بيروت قد براهم ، وعراهم من القوة مـامنه عراهم ، وأنه قد قطع عليهم طريق البحر بمـراكبه ، وقـد فجعـوا بمصائبه وذوائبه فقالوا أخذ هذا البلد هين ، وقصـده متعين ، واذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره الى جانبه وخـلا القـدس مـن جملة كتائبه وجمرة مضاربه ، فنبادر اليه من يافا وعسقلان ، مـن يجد في تملكه الامكان ، فلمـا عرف السـلطان مـاعزموا عليه مـن

القصد ، ودبروه من الكيد ، امر الملك الافضل بمباراة القوم في الرحيل ، وقطعهم بكل سبيل عن تلك السبيل ، وسبقهم الى مرج عيون ، وحتى اذا تيقن من قصدهم المظنون سبقت العساكر الى بيروت ودخلتها ، ونكت الفرنج ونكبتها وحولتها ، وكتب السلطان الى العساكر الواصلة الى دمشق ان يكونوا مع ولده وأن يضموا أمدادهم الى مدده ، ونزل بمرج عيون والفرنج بعكا بعد ، تجاوز ولم تعد .

ذكر نزول السلطان على مدينة يافا وفتحها

ولما رحل ملك الانكتير وسار وخلى وراءه الديار ، ترك في مدينتي يافا وعسقلان ، جمعا من منتخبي الرجال والفرسان ، ووصاهم بالجلد ، في حماية البلد ، فانتهز السلطان فرصة الغيبة ، وأوفد الى مساغ رجائهم غصة الخيبة ، ونهض بعسكره الحاضر ولم يتمهل لا نتظار العساكر ، ووافى يافا ووفاها بكيل المنجنيق أحجارا ، وأراق دماء وساق دمارا .

وزحف الناس وحفز الباس وفرعت المدينة ، ورفعت منها السكينة ، وقتل من بها ومسح وأخذ مابها وكسح ، ووجدت الأحمال المأخونة من قافلة مصر فأخذت وحملت وعلت الأيدي والسيوف من الدماء والأموال ونهلت ، ونفضت كنائن ونظفت خزائن ، واستخرجت دفائن ، وولجت مكامن ، وحصل استمتاعنا بأمتعة ، وانتفاعنا بكل مذفعة ، وامتلأ البلد الكافر بالمسلمين ، وبقيت القلعة وطلب حماتها الأمان ليكونوا لها مسلمين.وكان الناس قد سبقوا اليها ، وقرب ان يستولوا عليها وذلك يوم الجمعة العشرين من رجب . وقد شارف من فيها الشجب ، فلما طلب الأمان رد الناس وكفوا، فظن ان الغنيمة تصفوا. فانه خرج البطرك الكبير ومعه جماعة من المقدمين الأكابر ، على

أن يدخلوا تحت حكم الأسار ويسلموا جميع المال والعدة والذخائر على أن يطلق كل واحد منهم بأسير

ويفدى صغير بصغير . وكبير بكبير وشرعوا في الخروج احادا وعشرات . وعصبا متفرقات في ساعات حتى دخل الليل فاستمهلوا الى الصباح . وطلبوا واقترحوا من يقف لحفظهم فبذلنا لهم ماعينوه من الاقتراح . ومازال يخرج منهم من يستدعي زيادة التوثقة وتذفيس خناقهم بالمضايقات المرهقة . حتى وصل ملك الانكتير في البحر . في مراكب في سواد الليل بل ظلمة الكفر . ودخل هو القلعة من الجانب البحري ونادوا بشعار الغدر . فاكتفينا منهم بمن حصل في الاسر . وندمنا كيف خرجت اللقمة من الفم . ولاندفع بعد فوات الفرصة للندم . ولو ان السلطان توقف في تأمينهم . واستمر على توهيمهم ، لقلعت اساس تلك القلعة ، ونفضت رقعة تلك البقعة . ولقد كان ذلك فتحا عظيما ، وفضلا من الله عميما . فقد امتلأت الايدي بغنائم تلك المدينة . ووهت اسباب قواهم المتينة . واستعيد ما نهبوه من الكبسة المصرية . وفزنا بالغنائم السنيه . وقتل من اقام بالبلد واسر وكشط جلد تلك المدرة وبشر . وحصل في اليد من مقدمي القلعةنيف وسبعون . وتركوا وهم بالثبور يدعون . وكان القصد في الاول رجوعهم عن قصد بيروت . وخشي على فرصة حفظها ان تفوت ، فمن الله تعالى بحصول المقصود . وفزنا بجني الجهاد بغير بذل المجهود . وجرى الامر على الوجه المحمود . وانما وقع التندم ؛ كيف لم يقع في اخذ القلعة التسرع والتقدم . فتعاصت بعد الاذعان . وتعذرت بعد الامكان ، وجمحت بعد الاصحاب . وجنحت بعد الاكتاب . وافلتت وقد وقعت في الحبالة . واستقلت بعد العثرة والاستقالة . وضعف الفرنج من تلك الكرة . واذن نشاطهم بالفترة ومانتعشوا ولاانجبروا من تلك العثرة والكسرة . وعاد السلطان وخيم على النطرون . والعسكر قار القلوب قرير العيون وجاء اليه الملك الافضل ولده والملك العادل اخوه . واسفرت بالمسار الوجوه . وكان ولده الملك الظاهر ايضا قد وصل . وفي هذه الغزاة حضر وبينهما حصل . وكذلك كان قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا

ارسلان حاضرا . واخذ من السعادة حظا وافرا . وحصل بيده جرح يئس ان يؤسى . وظن تلك النعمة بؤسى . ثم اندمل جرحه . وفازت قداحه وحاز السني قدحه واقام السلطان حتى اجتمعت العساكر ولحقت اوائلها الاواخر . ووصل الملك المنصور ناصر الدين ابن تقيه في بيضه وسمره ومشرفيه وسمهريه . هذا والملك متأخر في المخيم . بسبب عارض السقم وملم الالم . ورحل السلطان ونزل بالرملة والعساكر في عدد الرمل والاسلام قرير العين من اهله بجمع الشمل . والفضاء قد امتلأ . والقضاء قد اجترأ . والقدر قد اسعد والسعيد قد قدر . والنصر ابدى الصفو واذهب الكدر . وتلك البرية قد حوت البريه . وجمعت العسكرية والكمت الجارية والكماة الجرية . والاعراب والعراب . والمحارب والحراب . والاجاود والجياد . والاساود والاساد . والبياض والسواد . والعدد والاعداد .

فصل في وصف الحال من كتاب الى الديوان العزيز

الخادم حاله على ماانهاه غير مرة في مرابطة اهل الكفر مستمرة . وافاويق النصر على حفولها تارة وبكئها اخرى مستدره . والحرب سجال . وللاسلام في مضمار الظفر مجال . وقد تجاوزت القصة عن حد الانهاء . وكلما شارفت القضية الانتهاء . عادت الى الابتداء . والحادثة متصله والواقعة مستقبله . والنعمة من الله في اجراء اوليائه على اجمل عاداته بانجاد عداته في قمع عداته مؤمله . وما ينقضي يوم الا عن نصرةتتجدد ، ونعمة تتمهد . وجمع للعدو يتبدد . وجمر لذكاية فيه يتوقد . وخد للسيف من حده بدم الشرك يتورد . وفتح بكر من العوان بلقاح البيض الذكور يتولد . واخر ماتم في هذه الايام . من مرهجات الكفر ومبهجات الاسلام . حظوة حلوة . وذوبة مالها ذبوه . وهي ان الفرنج لما اعجزهم قصد البيت المقدس . ولم يستقم لهم ما سولوه في الانفس عكسوا زعمهم . ونكسوا عزمهم . وعادوا خائبين . ونكصوا هائبين . واستأذفوا مكيدة اخرى .

وشرعوا في شر خلف الشرك به يمري . واجمعوا على قصد مدينة بيروت ، وتآمر على الاتجاه نحوها اعداء الله اولياء الطاغوت . فسارت العساكر الاسلامية على مباراتهم . لمضايقتهم في مضايق طرقاتهم . وتجرد الخادم في خواصه ووافى يافا . موقنا من الله تعالى ان مدد نصره اليه يتوافى . وحمل اليها من معتقلي نبات الاسل ومشتملي بنات الخلل الأسد والعرين .(فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين)[الصافات ١٧٧] فاخذها بالسيف عنوة . واعاد ضرام النيران بها جنح الليل ونزل البطرق والقسطلان والمرشان وجماعة من المقدمين خرجوا ودخلوا تحت القهر فبيناهم مشتغلون بالنزول . ومنقطعون الى الوصول .جاءهم الغوث في البحـــــــــــــــــــــــر.وظهرت منهـــــــــــــــــــــــــم امارة الغدر . ورجع العدو عن مقصده ورده الله وخذله . ونصر الاسلام واخذ له . وسره بما يسره له واجذله . ونال سيف الدمار من سيب دمائهم عله ونهله . وكان المقصود ردهم عن موردهم . وصدهم عن مقصدهم . فابى ماقيضه الله من فتح الهدى وحتف العدا على الارب . واهتزت اعطاف البيض والسمر المذشية من كاس نجيعها للطرب . والقوم الان قد اشتغلوا بمصابهم . واجتمعوا لضم ماانتشر من اسبابهم . وراسلوا في الصلح على ان تخلي لهم عسقلان فما اجيبوا . وعلموا بجهلهم انهم ماصابوا فيما دبروه لادبارهم فاصيبوا . والعساكر الاسلامية اليوم مجتمعة . ومسالك المهالك لضائقتهم ومضايقتهم متسعه . وقد آن ان تحل معاقد معاقلهم التي هي ممتنعه . وكل مايجده الله من علو يظهر . وعدو يقهر . ونصر يزهر . واصل بالظفر يشهر . فهو ببركات الاستمساك بطاعة المواقف الشريفة الامامية الناصرية . وبحمد الله ويمن ايامها وفضل انعامها دلائل النصر ظاهرة . واسباب الظهور متناصرة . ووجوه الامال بنشر نجاحها وبسر مافي اقتراحها سافرة.

ذكر الهدنة العامة

لما عرف ملك الانكتير ان شمل العساكر قد اجتمع . والخرق عليه قد اتسع وان القدس قد امتنع . وان العذاب به وقع . خضع وخشع . وقصر الطمع . وعلم انه لاقبل له بمن اقبل . ولا ثبات مع الجحفل وقد حفل . فاظهر انه إن لم يهادن اقام واستقبل . وللشر استقبل . وانه عازم على العودة الى بلاده . لامور مردها يعود الى مراده . والبحر قد آن أن يمنع راكبه ، ويسئم بالامواج غواربه ، فان هادنتم وطاوعتم تبعت هواي ، وان حاربتم وعصيتم القيت ههنا عصاي واستقرت نواي ، وقد كل الفريقان ، ومل الرفيقان ، وقد نزلت عن القدس وانزل عن عسقلان ، ولاتغتروا بهذه العساكر المجتمعة من الجهات . فان جمعها في الشتاء الى الشتات ، ونحن اذا اقمنا على الشقاق والشقاء . رمينا انفسنا على البلاء ، فاجيبوا رغبتي . واصيبوا محبتي ، وادعوني العهد ودعوني .ووادعوني وو دعوني ، فاحضر السلطان امراءه المشاورين وشاورهم في الامر ، واظهرهم على السر ، واستطلع ماعندهم من الرأي ، وسرد لهم الحديث من المبادىء الى الغاي ؛ وقال لهم نحن بحمد الله في قوه ، وفي ترقب نصرة مرجوه ، فانصارنا المهاجرون الينا ذوو دين وكرم ومروه ، وقد الفنا الجهاد . والفينا به المراد ، والفطام عن المألوف ، وماتصدع الى اليوم بتأييد الله لنا شعب ، ومالنا شغل ولامغزى الا الغزو ، ومانحن ممن يشوقه اللعب ويسوقه اللهو ، واذا تركنا هذا العمل فما العمل ، واذا صرفنا عنهم الامل ففيم الامل ، واخشى ان يأتيني في حالة بطالتي الأجل ، ومن الف الحلية كيف يألفه العطل . ورأيي ان اخلف رأي الهدنة ورائي ، واقدم بتقديم الجهاد اعتزازي واليه اعتزائي • وماانا بطالب البطالة • فارغب عن استحالة هذه الحالة • وقد رزقت من هذا الشيء فأنا الزمه . ولي بتأييد الله من الامر اجزمه واحزمه . فقالوا له الامر على ماتذكره . والتدبير ماتراه والرأي ماتدبره . ولايستمر الاماتمره من الامر • ولايستقر الا ماتقرره . وان التوفيق معك في كل ماتعقده

وتحله وتورده وتصدره . غير انك نظرت في حق نفسك من عادة السعادة • وارادة العبادة . واقتناء الفضيلة الراجحة • والاعتناء بالوسيلة الناجحة والاذف من العطله • والعزوف للعزله • واذك تجد من نفسك القوة والاستمساك . ويقينك يعرفك بالاماني الادراك • فانظر الى احوال البلاد فانها خربت وتشعثت • والرعايا فانها تعكست وتعلثت . والاجناد فانها نصبت ووصبت • والجياد فانها عطلت وعطبت • وقد اعوزت العلوفات • وعزت الاقوات . وبعدت عنا العمارات • وغلت الغلات • ولاجلب الا من الديار المصرية • مع ركوب الاخطار المهلكة في البرية • وهذا الاجتماع مظنة التفريق • ولايدوم هذا الاتساع مع هذا الضيق فان المواد منقطعة • والجواد ممتنعه . والمترب قد ترب . والمعدم قد عطب • والتبن اعز من التبر ، والشعير ليته وجد وإن كان غالي السعر • وهؤلاء الفرنج اذا يئسوا من الهدنة بذلوا وسعهم في استفراغ المكنة واستنفاد المنه • وصبروا على المنية في طريق الامنيه • وابوا في الاقبال على دينهم قبول الدنيه • والصواب ان نقبل من الله الاية التي انزلها وهي قوله (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) (الانفال ٦١) وحينئذ تعود الى البلاد سكانها وعمارها • وتكثر في مدة الهدنة غلاتها واثمارها • وتستجد الاجناد عدتها وتستريح زمان السلم ومدتها • فاذا عادت أيام الحرب عدنا • وقد استظهرنا وزدنا • ووجدنا القوت والعلف • وعدمنا المشاق والكلف • ففي ايام السلم نستعد للحرب • ونستجد ادوات الطعن والضرب • وليس ذلك تركا للعبادة • وانما هو للاستجداء والاستجداد والاستجاده • على ان الفرنج لايفون • وعلى عهدهم لايقفون • فاعقد الهدنة لجماعتهم لينحلوا ويتفرقوا • وقد شقوا بما لقوا • ومايقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومة ، ويستقل بالملازمة . وما زال الجماعة بالسلطان حتى رضي • واجاب الى ماا قتضي . وكانت قد بقيت بين العسكرين منزلة واحدة • والعجاجات على الطلائع متعاقدة • فلو رحلنا رحلناهم • وعلى الهلك احلناهم • لكن مراد الله غلب • واجيب ملك الانكتير من الصلح الى ماطلب • فحضرت لانشاء عقد الهدنة وكنت نسختها ، وعينت مدتها وبينت

قضيتها ، وذلك في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لاول ايلول لمدة ثلاث سنين وثمانية اشهر ، وحسبوا ان وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر ، وتتصل امدادهم على الحشد والحشر ، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر ، والسهل والوعر والبدو والحضر . وجعل لهم من يافا الى قيسارية الى عكا الى صور . وابدوا بما تركوه من البلاد التي كانت معهم الغبطة والسرور . وادخلوا في الصلح طرابلس وانطاكية . والاعمال الدانية والنائية .

فصل من كتاب الى الديوان العزيز في شرح نوبة يافا ثم افضاء الامر الى عقد الهدنة

قد سبقت مطالعة الخادم بانهاء حاله . وماهو لايزال مستمرا عليه من جهاد العود وقتاله . وماكان عليه الكفر من الجمع الملتهم والجمر الملتهب . والحشر والحشد المضطرم المضطرب . وانهم قد اجتمعوا على قصد البيت المقدس . وعزموا على بذل المصونين من النفائس والانفس . وسلكوا في القصد كل طريق . وتوافوا وتوافدوا من كل فج عميق . ودنوا على ظن ان جنى الفتح لهم دان ، وان شبا الحتف عنهم وان . ولما قربوا عرفوا ان المرمى بعيد المرام . وانهم لايستطيعون مقاومة عسكر الاسلام . فنكصوا على اعقابهم . ونكسوا ماضربوه من ارائهم وارابهم . وعلموا عقبى ماجهلوه . وقطعوا من اسباب العزم ماوصلوه . وذكثوا من عقد القصد ماابرموه . وشرعوا في أمر آخر توهموه • ومضوا واستأنفوا الاستعداد . واستنهضوا الامداد ، وحصنوا بلادهم . وجمعوا فيها طرافهم وتلادهم . وشحنوا عسقلان ويافا بالقوة الجامعة . والعدة النافعة . والشوكة الرادعة . والاشكة القاطعة . واستظهروا فيها بكل ماقدروا عليه من المنعة الحاميه . ورجال الصبر على النار الحامية • ثم ساروا بحشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة .

وظلال الضلال الممدودة وصلال الصلادم المقودة . مستمطري شآبيب الانابيب . مستنفري سراحين السراحيب ، وتوجهوا على سمت ثغر بيروت بنية العصر . وغفلوا عما اجراه . الله لاوليائه على أعدائه من عوائد النصر . ولما نمى خبرهم . وطار شررهم . وخيف ضررهم . أنهض الخادم العساكر المنصورة إلى مقابلتهم . ومباراتهم ومقاتلتهم . ونزل في مماليكه وخواصه . ورجال الاقدام ذوي استخلاصه . على مدينة يافا فأخذها بالسيف عنوة . وجب بها من سنام الكفر ذروة . وحل منه بغزوته اليها عروة . واستكمل للاسلام . بتملكها حظوة . وقتل كل من حوته وسبى . وناب المشركين بما بنى مجده ومضى حده فيه وما نبا . وغنم من أموالها المسلمون ما خف وثقل . وأسر من وجد فيها وقتل . ونهب من آلات الحصر ما خرج عن الحصر . وابتذل كل ما صين من الغلال والعدد والمال الدثر للذخر . وطلب أهل القلعة الامان من القتل خاصة دون الأسر . وشرطوا أنهم لايمكنون من الدخول اليهم من جاءهم للنجدة من البحر . وأخرجوا على سبيل الرهينة مائة رجل من محتشميهم . وكذودهم ومقدميهم . مثل البطرك الكبير والقسطلان والمرشان ومن يجرى مجراهم من الفرسان . فلما أصبحوا جاءهم ملكهم في البحر ففدروا . وامتنعوا بعد انقيادهم للعجز حين قدروا . وخيم العدو هناك في جموعه . وندب الى عسكره من يأمره برجوعه . ووافت في البر جحافلة حافلة . وتواردت في الاسراع إلى الصريخ ظلمانا جافلة . فاجرى الخادم على الرهائن حكم الاسترقاق . وسيرهم إلى دمشق في أقياد الوثاق . ورجع الى القوم فهزمهم وردهم الى عكا . بعد ما نكى فيهم وأضحك من دمائهم البيض وأبكى . وعاد إلى العدو ونزل عليه . وكدر الموارد لديه حين زحف إليه . واجتمعت من أهل الاسلام العساكر . واقتسعت على المشركين في المضايقة الدوائر . ورجا المؤمن وخاب الكافر . وجالت بأوجالها الضمائر لما جالت عليهم الضوامر . وعاينوا العذاب الواقع . وعدموا الدافع . وشاهدوا المصارع . فما زالت رسلهم تتردد بالضراعة . وبذل الطاعة . والنزول عن الاشتطاط . والدخول تحت الاشتراط . والغبطة بما هز له الاسلام

عطف الاغتباط . واحتوى عليه بيد الاحتياط . وكانوا لايجابون إلا بالاباء . ولاتلقى رسلهم إلا بتصميم عزم اللقاء . حتى حضر أكابر الدولة وأمراؤها . وأولياء الطاعة وألباؤها . واشاروا بعقد الهدنة . والانتهاز فيها الفرصة المكنة . واستقرت المهادنة على ما أعزه للاسلام الاذوف وأذل من الكفر الرقاب . ورجح وأنجح من أهل الايمان الآراء والآراب . بعد أن نزلوا عن البلاد والمعاقل التي تملكوها . وبعدوا عن الطرق التي سلكوها . وسألوا الأمان على الاماني التي استدركوها وما أدركوها . وسلموا عسقلان وغزة والداروم وبيبنى ولد وتل الصافية . وغير ذلك من الاعمال والاماكن الوافرة الوافية . واقتنعوا بيافا وعكا وصور . واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والقصور . ورأوا عزهم في ذلهم . وصونهم في بذلهم . وسلامتهم في سلمهم . وغناهم في عدمهم . ولانوا بعد الاشتداد . ودانوا للانقياد . وهانوا بعد الاعتزاز وهابوا بعد الاغترار . وأقروا بعد الانكار لتعود جفونهم الى الغرار . وأمورهم الى القرار . وخلوا ديارهم وأخلوها . وما سألوا عن حب الاوطان والاوطار وسلوها . ومدة الهدنة التي اخذوا بها اليد واعطوا اليمين . ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها أول أيلول يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين . ووضعت الحرب أوزارها . ورحضت بماء السلم أوضارها وأخذت من أهل النار نارها . وقصدت الفرنج من وراء البحر ديارها . ولا شك أنهم يستعدون في هذه المدة . ويستمدون ما يستطيعونه من القوة والعدة . ويستجدون عزمة العودة . وقد شرع الخادم في تحصين الثغور . وإمرار الامور . وابرام معاقد المعاقل . وإحكام قواعد الحق بتعفية آثار الباطل . وإتمام أسوار القدس وخنادقه . حتى يبقى على الدهر آمنا من طروق العدو وطوارقه . وإعادة الاعمال والاحوال إلى عادة عمارتها . وحلية نضارتها . وإجمام العساكر واراحتها . ليوم تعبها الذي هو عين راحتها . ولقد كان الخادم للسلم متكرها . ولايرى أن يكون كشسيمة ملوك العصر عن الغزو مترفها . لكنه أجمع من عنده من الامراء وذوي الاراء على ان المصلحة في المصالحة راجحة . وأن صفقه الكفر فيها خاسرة وصفقة الاسلام رابحة .

وان في اطفاء هذه الجمرة وقد وقدت سكونا عاما . وأمنا تاما . وتفريقا لجمع الكفار لشمل النصر عليهم ضاما . فهي سلم أذكى من الحرب فيهم . وانها تقصيهم من هذه الديار بل تنفيهم . والى متى تجتمع هذه الاعداد الهائلة لهؤلاء الاعداء . وتتفرق هذه الامداد المتواصلة من أهل النار في الماء . وما صح لهم هذا الجمع على التكسير إلا في خمس سنين . وما وافى اليهم مددهم من الوفه سوى مئتين . وكل ما كان لهم من أموالهم في بلادهم نقلوه وانفقوه . وأيقنوا أن مرامهم صعب وتحققوه . فمتى انفضوا انقضوا . وقد آن ان يرفضوا ويرفضوا . وإلى أن يتفق مثل هذه الجموع . ويعزم ذاهبهم على الرجوع . يكون الاسلام قد استظهر بقوته . واستكثر من نجدته ومن جدته ، فرأى موافقة الاجماع . وقبل مناصحة الاشياع . وتفرق جمع الكفر وباخ جمره . وأمن ذكره ومكره . وانشرح صدر الاسلام وتضوع نشره . وتوضح بسنى النصر فجره .

ذكر ما جرى بعد الصلح

عاد السلطان الى القدس وعادت عادة سعادته . واشتغل باتمام السور والخندق وتكميل عمارته . وفسح للفرنج كافة في زيارة قمامة . فجاؤوا ووجدوا الامن والسلامة . وزاروا ورازوا . ولما عجزوا أن يحتازوا سألوا ان يجتازوا . ففسح لفريق من بعد فريق . وتوافوا في طريق وراء طريق وقالوا إنما كنا نقاتل على هذا الذي وجدناه مع الصلح.ومازلنا سائرين في ليل القصد حتى وصلنا إلى الصبح . وكان ملك الانكتير راسل السلطان وسأل منع الزيارة الا لمن وصل معه كتابه أو رسوله . ورغب في أن يجاب سؤاله في ذلك ويصاب سوله . فقيل مقصوده انهم يرجعون إلى بلادهم على حسرة الزيارة . فيبقون على الاستنفار والاستثاره . ومن زار برد قلبه . وتنفس كربه . ولم يبق له في مشقة العود أرب . ولم يتصل له لهذه الديار سبب . فكان الامر كما حسب فاعتذر إليه في الجواب الذي

كتب . وقيل له أنت أولى بمنعهم . وردهم بردعهم . فانهم يصلون إلينا وافدين . ولزيارة الكنيسة قاصدين . وما يقتضي كرمنا أن نرد الوفود . ولانبلغ من يقصدنا المقصود . ومرض ملك الانكتير مرضا ألهاه عما اشهاه . ولم يبلغ في هذا الغرض إلى منهاه . وركب البحر وأقلع . وعجل في مفارقته وأسرع . وسلم الامر الى من يليه . وهو الكند هري ابن أخته من أمه . وهو ابن اخت ملك أفرنسيس من أبيه وتبعه فرنج الجزائر . ولم يقف الاول على الاخر .

ذكر ما عزم عليه السلطان

عزم على الحج وصمم . وكتب الى مصر واليمن بما عليه عزم . وأمر بأن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الازواد والنفقات . والثياب والكسوات . فقيل له لو كتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته بحجك وعرفته بنهجك . حتى لايظن بك أمر انت منه برىء ويعلم أن قصدك في المضي مضيء . والوقت قد ضاق ويبلغ الخبر الافاق . ثم هذه البلاد اذا تركتها على ما بها من الشعث . لم تبرم مرر حبلها المنتكث . وهذه المعاقل التي في الثغور ، حفظها من أهم الامور . ولايغير بعقد الهدنة . فان القوم على ترقب المكنة . والغدر دابهم . ومليء البغي إهابهم . فمازال الجماعة بالسلطان حتى حلوا من العزم ما عقده . واطفأوا من نار جده فيه ماأوقده . فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعمارته . وتهنيب عمله ومعاملته . وكان الوالي بالقدس حسام الدين سياروخ . وهو تركي يقتدى به في زهادته وحسن سيرته الشيوخ . وكان فيه دين ولين . وحبله في الخير متين . ولم يزل مستوفيا لحق الامانة . مستعفيا من الولاية لطلب الصيانة . فانصرف حميدا أثره . كريما مورده ومصدره . وفوض السلطان ولاية القدس الى عز الدين جرديك . وقال تهديك في الامور يغنيك عن ان نهديك . وإنما اعتمدنا عليك لاجتماع خلال الكفاية والشهامة والديانة فيك . فتول آخذا بالحزم في تثبتك

وتأنيك . وترويك وتأتيك . وولى علم الدين قيصر اعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها ، فخرج اليها وتولاها . وأمر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين . واعانة المقطعين ، وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر الى أعمال عسقلان . ليعيد إليها الزراعة والعمران . وسأل الصوفية عن أحوالهم وآذن سؤاله عنها باجابة سؤلهم وسولهم . فانه كان وقف دار البطرك مجاورة قمامة لهم رباطا . وجعل لهم كل يوم فيه سماطا . وزاد في الوقوف . وحكمهم في الانفاق بالمعروف . وكان قد جعل كنيسة صندحنا عند باب الاسباط للفقهاء الشافعية مدرسة . وردها بنية على التقوى مؤسسة . وزاد في أوقافها . ووفر مواد تلادها وطرافها . وأمر بان تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب قمامة بيمارستانا للمرضى . واتخذ فيها بيوتا فيها حاجات أصحاب الامراض على اختلافها تقضى ، ووقف مواضع عليها . وسير ادوية وعقاقير عزيزة الوجود اليها . وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف الى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم . وعول منه على أمين كريم .

ذكر خروج السلطان على عزم دمشق من القدس وعبوره على الحصون

خرج السلطان من القدس ضحوة الخميس خامس شوال . وقد دبر الاحوال . وأقام بعدله الاعتدال . وأفاض الفضل والافضال . وجاوز ناحية البيرة . وقد جلا جلاله سني راياته المنيرة . وبات على بركه للداوية . بالهمة الروية والعزمة القوية . ونزل على نابلس ضحوة يوم الجمعة . وجمع شتات مصالحها المتوزعة . وكثرت الاستغاثات على سيف الدين علي المشطوب صاحبها . وأنه قد طرق الرذق الى مشاربها . وزاد في رسومها وذوائبها . فاقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالمها . واضحك بالعدل والاحسان مباسمها . واسقط رسومها الجائرة . وأمات سننها الضائرة .

وأصفى بها شرعة الشريعة . واضفى ظلال الرعاية الرعية في مراعيها المريعة . ورحلنا بعد الظهر . وبتنا ليلة الاحد عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بالفريديسة . ورتعنا في مروجها الانيسة . وأصبحنا راجلين . ونزلنا ضحوة على جيئين . وهناك ودعنا المشطوب وداع الابد . فانه انتقل بعد ايام الى رحمة الواحد الصمد . وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال . ورحلنا يوم الاثنين وجئنا ضحوة الى بيسان . وأزال حلول السلطان عنها البؤس واشاع الاحسان . وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية . فابصر قللها العالية . وقال هذه اذا عمرت دامت في حضانة الحصانة . وكان جبلها لوثوقه مستودع الامانة . والصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب . ولم يزل حتى بين كيفية بنائها ورتب . وووعد باحكامها ، وإعلاء اعلامها ، ثم ظهر ظهرا وبات على قلعة كوكب . وشاهدها وصعد نظر رأيه فيها وصوب . ورحل عنها ضحوة الثلاثاء ونزل بظاهر طبرية وقت العشاء . وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الاسر . وتلقيناه بالبشر والبر . واقمنا بها يوم الاربعاء لتوافر الانداء . وتواتر الانواء . ورحلنا بكرة الخميس ونزلنا بقرب قلعة صفد تحت الجبل . وصعد السلطان اليها وامر بتسديد ما فيها من الخلل . ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة ونزل ضحوة بضيعة يقال لها الحبش . وهي عامرة محتوية على سكانها . كأنها العش ، وسرنا منها وخيمنا على مرج تبنين . وبتنا باحوال قلعتها معتنين . واصبح السلطان حوالي حيطانها باحوالها محيطا . ممتطيا قلة قلعتها ولا سباب اختلالها مميطا . ووصى الوالي بعمارتها وجعل مصالحها بكفايته مذوطة . وسدادها بسداده مذوطا . ثم رحلنا بكرة السبت وجزنا على قلعة هونين . ونزلنا من الجبل . وبتنا على عين الذهب واجتمعنا بالثقل . ورحلنا يوم الاحد وخيمنا بمرج عيون . وجلس السلطان على عادته معنا في تدبير الممالك تلك الليلة وسهرت العيون . ورحلنا عصر يوم الاثنين ووصلنا السير بالسرى . وقطعنا في الطريق الوعر الوهاد والذرا . وعبرنا بين عمل صيدا يسرة وعمل وادي التيم يمنة على الضياع والقرى . وعرسنا على مرج تلفياثا

مقابل مرج القنعبة . ودفعنا إلى سلوك المسالك الصعبة . ثم اصبحنا يوم الثلاثاء على الرحيل الى البقاع من تلفياثا فخيمنا على جسر كامد . والسلطان مشغول في طريقه من تقرير العمارات وتحرير سنن الحسنات باقتناء المحامد . ثم غدونا يوم الاربعاء وخيمنا بناحية قب الياس وقد اصحرنا الى الفضاء . وأقمنا ذلك النهار راتعين نت الفواضل السلطانية في النعماء . ولما جن الليل جمعتنا بالخضرة السلطانية الانوار . وسرت اسماعنا منه اسماء رجال الفضل والكرم وسنتهم لا الأسعار ، ودخل السلطان يوم الخميس الى بيروت ، وانجز بالوصول اليها وعدة الموقوت ، ونزلت الاثقال على مرح قلميطية بالبقاع ، وأقامت خمسة أيام على الاستراحة والايداع .

ذكر وصول السلطان الى بيروت ودخول بيمند الابرنس صاحب أنطاكية عليه والاستجارة به وذكر سامة

ولما وصل السلطان الى بيروت تلقاه واليها عز الدين سامة ، بكل ما توفرت به الكرامة ، واستقبل الأصحاب بصدر رحيب وظل خصيب ، وساحة اريب وسجاحة لبيب ، وفتحت الأهراء على غلاء الغلات بالثغر ورفع اغلاقها ، وسبلها وما قيد اطلاقها وقرى واضاف ، وادنى القطاف ، واصفى العطاف ، وتلطف في الهدايا وأهدى الألطاف ، وفرق على الصغير والكبير التحف ، واحضر للسلطان ولكل من معه الطرف ، واغنى واقنى ، واعدم في الجود الموجود وافنى ، واعطى الخيل والمماليك والجواري والملابس ، وبذل النفائس ، وزف على اكفاء المحامد من ابكار المناقب العرائس ، واظهر في مكان الشدة الرخاء ، وفي مظنة الضن السخاء ، واهب في اعصار الاعسار لرجال الرجاء من سماء السماح الرخاء ، واحضر كل ما عنده مما كسبه في الغنيمة ، جريا

على كرم الشـــيمه ، ومـــــن الجـــــوخ الأفـــــرنجية والثياب البندقية ، والهنايات الفضـــــــــية والأكواب اللجينية ، والسروج واللجـــم ، والأكســـــية والحـــــزم ، والمهـــــاميز والملاليط والغفافير ، والعروض والدراهـــم والدنانير ، ففـرق مـن ذلك مـا جمعه • ورفع الى كل منه ما اسمى قدره ورفعه . وما انفصـل عنه الاكل مواصل بشكره ، مسـاجل امثـاله بـذكره ، مضـوع كل ناد للكرام بذشره ، وقام بالسلطان وبكل من صحبه مدة مقامه ، واعجب واعجز ما صدق باهتمامه .

ذكر وصول الابرنس بيمند ودخوله على السلطان

ولما اراد السلطان عن بيروت الانفصـال ، وذلك في يوم السـبت الحادي والعشرين من شوال ، قيل له إن الابـرنس الأنطـاكي قـد وصل الى الخدمة ، مستمسكا بحمـل العصـمه . داخـلا حـــكم الذمه . فثنى عنانه ونزل واقام ومـا ارتحـل ، وانن للابـرنس في الدخول ، وشرفه في حضرته بـالمثول ، وقـربه وآنسـه ، ورفـــع مجلسه ، وأظهر له البشاشة والهشاشة ، وســكن مـن روع روعه الحشاشة ، وكان معه مـــن مقـــدمي فـرسانه اربعـــة عشر بارونيا ، ووهب كلا منهـم تشريفـا سريا ، وأجـــزل له ولهـــم العطاء ، وابدى بهم الاعتناء.وكتب له من مناصفات انطاكية معيشة بمبلغ عشرين الف دينار ، وخص اصـحابه بمبـار ، واعجبـــه استرساله اليه ودخوله عليه بغير امان ، فـلا جـرم تلقـاه بـــكل احسان ، وودعه يوم الأحد وفارقه ، ووافـق مـراد السـلطان انه بمراده وافقـــه ، وانصرف المذكور مسرورا ، بين اسرتـــــه مذكورا ، محبوا بالمنح والمنن محبورا .

ذكر وصول السلطان الى دمشق

لما خرج السلطان من بيروت يوم الأحد بات بالمخيم على البقاع ، واحضرنا تلك الليلة في نادي فضله المؤانسة والامتاع ٠ وتجاذبنا اطراف الآراء ، وهززنا منه اعطاف الآلاء ، واستدنينا قطاف النعماء ، وقد قرب الدخول الى البلد ، والوصول الى الأهل والولد ، وكل يقترح مقصودا ويقصد اقتراحا ويظهر الى سكنه ومسكنه ارتياحا والتياحا . فرحلنا يوم الاثنين وعبرنا عين الجر وبتنا على مرج يبوس ،، وقد شرح الله الصدر واطاب النفوس ، ووصل الينا من اعيان دمشق من سبق للتلاقي والاستقبال ، واظهروا بقدومنا أسباب الاحتفاء والاحتفال ، وجاءتنا فواكه دمشق واطايبها ، واغتصت بالواصلين الينا مسالكها ومذاهبها ، ورحلنا يوم الثلاثاء وبتنا بالعرادة ، وجرى المتلقون في التحفي بالتحف على العادة ، واصبحنا يوم الأربعاء ودخلنا الى دمشق وقد اخرجت اثقالها ، وابرزت نساءها ورجالها ، وكان يوم الزينة ، وخرج كل من بالمدينة ، وحشر الناس ضحى ، واشاعوا استبشارا وفرحا وكانت غيبة السلطان عن دمشق اربع سنين في الجهاد طالت ، فاهتزت بقدومه واختالت وقرت بفضائله الأعين ، واقرت بفواضله الألسن ، وذاعت اسرار السرور ، ورقت حبرات الحبور ، وطابت الأنفس ، وغابت الأبؤس ، وانجلت المكاره وتجلت المكارم ، وافترت المباسم وهنيت بموسمه المواسم ، وتهوديت التهاني ، وهديت الأماني ، وغنت المغاني ولذت المجاني ، وسفرت المجالي ، وظفرت المعالي ، وتحلت الأحوال ، وتملت الآمال ، وراج الرجاء ، وارجت الأرجاء ، وفاض الجود ٠ واستفاضت السعود ٠ وعم العدل ٠ وتم الفضل ٠ واشرقت الافاق ٠ وآفاق الاشراق ، وكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء . وحل في القلعة حلول الشمس في برجها ، وقد جلت اوجه السعود بأوجها ، وأخذت بحار سماحه في

موجها ، وسلكت المناجح في نهجها ، وجاءت المنائح في فجها بفوجها ، وصفت شرعة الشرع لواردها ، وضفت حلة الكرامة على وافدها ، وفتحت مرتجات ابواب الآلاء لمرتجيها ، واستجدت عادات انجاز عدات الجوائز لمستجديها ، ويسر اليسار لاسعاف العافي ، وتمت على السن الأنام اوصاف الصافي ، وجلس السلطان في دار العدل فأعدى المستعدي ، ولبى المستدعي ، وأجاب واجار ، وأنال وانار ، وجاد واجاد ، وبدأ واعاد ، وفي هذا الشهر خلص بهاء الدين قراقوش من الأسر ، واجتمع بنا يوم وصلنا الى طبرية ، ولقي من السلطان الألطاف الخفية ، ووصل معه الى دمشق واقام الى ان خلص اصحابه من الأسر ، وتوجه الى مصر ، وقد صان نفسه ببذل ماله ، واخرج ثروته ودخل في اقلاله ، وخرجت السنة والسلطان في اسنى سنانه ، وابهى جلاله وأجلى بهائه ، والناس راتعون في رياض نعمائه ورسل الممالك الغربية والشرقية عنده يخطبونه ويطلبونه ، وينتظرون عزمه ويرقبونه ، وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره ، وابتسام ثغر الربيع وافتراره ، والتهاب زهر ازهاره ، وانتهاب سرح سلاح اسحاره ، وانتباه عيون بهاره ، واندلاق غرار عراره وائتلاق انواء انواره ، وانطباق نواظر ثماره ، واصطفاف اوراق اشجاره ، واذفتاق كمامه واتساق نظامه . وانتشار منظومه . وانتظام منثوره ، وانفجار صبح اسفاره ، وانفراج وجه سفوره ، واجتماع لفيف اعشابه ، واستماع حفيف اقصابه ، والتماع بريق سحابه واتساع طريق صحابه ، وانشقاق شقائقه ، وانعقاق عقائقه ، واشتمال شمائله ، واقتبال قبائله ، وتأرج صبا صباحه ، وتبلج صبا صبابه ، وتورد وجنات جناته ، وتوقد جمرات ثمراته ، وتنسم ضمير ضميراته ، وتصور خدود تفاحه ، وتدور نهود رمانه ، واخضرار آس عذاره ، واحمرار خد جلناره ، وتشنف اقطار النادي اقراط قطار الندى ، وتفوف حافات الوادي بالوشي الوشيع من حول الرباب حول الربا ، فإذا طاب النسيم ونسم الطيب ، ودعا البلبل ولبى العندليب ، وتعطر عبير الربيع وتصور الشقيق كأنه تخمر من عجين النجيع ، ووافق

مراد المرعي من المراد المريع ، وحلا الجني اللجيني . وحلى النضير النضاري ، وبقل العذار البنفسجي . واشتعل الخد الجلناري الناري ، ونجم في الروض النجم السمائي المائي ، وابتسم الثغر الاقاحي ، وتبسم الضوع الصباحي ، وتحرك العرف السحري الشجري ، وتأرج النشر الروضي ، وتبلج البشر الوضي ، وانتشى النشأ الشكالي الشمولي . وانتعشت عاثرات اعشاب الشعاب ، وقابلت القبول خطبة الفضل بفضل الخطاب ، وصبت، الصبا في محل خطيئة المحل بصوب الصواب ، فحينئذ آل جماح الأصحاب الى الاصحاب ، وصرفت اشاجيع الشجعان وأيمان أهل الأيمان كل مواج العنان رواج السنان ، ونزعت النزائع الى الحلاب ، ورشفت القواطع بشفاه ضرب الضراب ، واجتمعت العساكر وعسكرت الجموع ، وسرت الطلائع وسر الطلوع ، ونهض اهل الجد وجد النهوض ، وفاضت المنابع ونبعت الفيوض ، وضرب السرادق السلطاني حيث النصر ينزل ، والسعد يقبل ، واليمن يشمل ، والنجح يسهل ، والظفر يمثل ، والأمر يمتثل ، والجد يسمن . والهزل يهزل ، والعزم يولي،والوني يعزل ، ويعم العدل مع اعتدال الزمان كل مكان ، ولا يتنفس الا بحديث الطاعة من يحدث نفسه بعصيان ، واقمنا على هذا العزم الى آخر السنة ، والاجفان مغضوضة على طيب السنه ، وظل البرد الشديد مديد ، والجلد واه والهواء جليد ، وحد الشتاء في التشتيت حديد . والجبال قد اشتعلت رؤوسها شيبا ، والثلوج قد زرت على اعناق اطوادها جيبا ، والجوفي نظم ونثر ، والثرى من التراث مثر ، والهتون ناكب ناكت ، والهتوف ساكن ساكت ، والمزن مزين ، والحزن حزين ، والسماء سماط ، والنشاص نشاط ، والسحاب حساب ، والبرق والرعد انتحاء وانتحاب ، والبرد من ثلجه برد . والمطر في نهجه طرد ، والغيث عيث ، والوحل ريث ، وكانون قد اكن الربا • وشباط قد شب الشربا . والنار محبوبة مشبوبه ، وحدود الذكب مذروبه ، وخدود التترب مضروبه ، والسلطان مشغول بالصيد والقنص ، منتهز في العمر للفرص ، مبتز بالبزاة والصقور ، حشاشات الوحوش

والطيور ، بكل جار جارح ، وطائر طارح ، يدني اجل الحجل وحمام الحمام ، كأنه غريم لها لاهي الغرام ، وكل شهم ينقض انقضاض السهم ، ويبط بطن البط بالحزم ، وأكثر الجلوس بدمشق في دار العدل ، واغزر لمنتجعيه در الفضل . وحكم وقضى ، واسخط بالحق وارضى ، ووقف وامضى ، وما منع بل اعطى ، واصاب وما اخطا ، وجاد واجاد ، وابدى واعاد ، ووافد وافاد ، واحسن وزاد ، واغنى واقني واجدى واسدى ، وأولى وولى ، وأجار واجاز ، وحاز وفاز ، وقرب العلماء ، وأكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء ، وتكلموا عنده في المسائل الشرعية ، وظفروا من جوده بالوسائل المرعية ، وماكان احسن الى الحق اصغاءه ، وأسرع للباطل إلفاءه • ولكل ذي فضل منه حظ • ولكل ذي حفظ منه حفظ • ولكل محروم منه رزق ، ولكل مرزوق الى حمده سبق ، ولكل فهم عنده سوق ، ولكل سهم عنده فوق ، ولكل أدب لديه داب ، ولكل عاتب عدم من جوده أعتاب ، ولكل مكرمة عنده باب ، ولكل دعوة عاف من اسعافه جواب ، ولكل مستجد اجداء ، ولكل مستهد اهداء ، ولكل سائل نائل ، ولكل ماحل وابل ، ولكل ظام ري ، ولكل حائم ورد هني ، فما أسح مزنه ، وماأصح وزنه ، وماأسمح يده ، وماأوضح جدده ، وماأعلى جده، وماأجد علاه ، وماأجدى كفه وماأكفى جداه ، وماأكثر حياءه وأغزر حياه ، وأرج رباه، وأبلج محياه .

وممن توفي في هذه السنة من الملوك سلطان الروم قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان ، وكانت وفاته يوم الخميس منتصف شعبان .

كان له عشرة من البنين فولى كلا منهم اقليما ، وقصد به لناد امر ذلك الجانب تقويما ، فقوي كل منهم في ثغره ، واستقل بأمره ، ودب في طبعه حب الاستيلاء والاستبداد ، ومد عينه الى مافي يد صاحبه من البلاد ، وكان أكبر بنيه قطب الدين ملكشاه قد استحكمت قواه . واستطال هواه ، وهو حينئذ متولي سيواس ، فأطاع في التملك على ابيه ملكه الوسواس ، وسعى الى

أن أبعد من عند والده اختيار الدين حسن بن غفراس ، وصور له انه يريد ان يستولي على الملك ، وينفرد بانتهاج المسلك وانتظام السلك ، وساعده صاحب ارزنكان وأمن اختيار الدين الى المذكور واختاره ، واستأذن السلطان ان يقصد دياره ، ويقيم عنده الى أن يصلح أمره مع أولاده ، ويأذن له في العود الى بلاده ، فاستصحبه صاحب ارزنكان ، وأوقع عليه في الطريق التركمان ، فقتلوه شر قتله ، ومثلوا به وبولده مثله ، فلما عرف ملكشاه أن وجه والده خلا ، وأنه عن حسن بن غفراس سلا ، ساق اليه ، وأخنى عليه ، ودخل قونية دار مملكته ، واستبد بحوز حوزته ، وقوي بعزته ، وعز بقوته ، وقال لوالده انا بين يديك ، واشفق عليك ، وأنفذ أوامرك ، وأوفر مآثرك ، وقتل أمراء كانوا لأبيه ، وألزم خدمته من لايشتهيه ، فبقي معه كالمعتقل ، يظن حاليا وهو في العطل ، واستكتبه أنه ولي عهده ، والقائم بالسلطنة معه ومن بعده ، وتصرف في خزانته وملك أقسرا ، وفرع وفرى ، وقرع وقرا ، وقطع وبرى ، وقد مضى حديث ملك الألمان ، في ذلك الأوان ، وكيف وصل وعبر الى الشام ، وكيف قوي بهم في وهن الاسلام ، واستصحب معه والده الى قيسارية ولقسر اخيه نور الدين سلطانشاه وحصره ، واظهر انه بأمر والده وأنه شاد ظهره . وخرج عسكر البلد وصف ، ووقف وكف ، ورأى قليج ارسلان ، أن ولده عنه مشغول ، وان عقد حراسته له محلول فخرج من الصف مفارقا للولد ، وانفصل ملكشاه الى قونية وملك تلك الأمكنة ، وقد استبد بالسلطنة ، وبقي قليج ارسلان يتردد في بلاده ، وفي ضيافه أولاده ، وينتقل من بلد الى بلد ، ومن ولد الى ولد ، وكلهم يضجر منه ، ويعرض عنه ، حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب برغلو فقواه وآزره وضافره وظاهره ، وجمع وحشد له وأخذ له وما خذله.وجاء به الى قونية فدخلها ، وحلى به عطلها وخرج ليأخذ أقسرا فتعذرت وتمنعت عليه وتعسرت ، واسترغب الأوجيه ، وجمع العسكرية ، فمرض فجاء به وقد توفي الى قونية في محفه ، ونزل يمشي قدامها ويظهر انه من المرض الثقيل في خفة ، حتى دخل المدينة وقلعتها ، واجتازها

واجتاز مملكتها ، واستدعى الأعيان ، فاستحلفهم ، واستمالهم وتألفهم ، ثم اظهر لهم وفاة ابيه وأنه وارث ملكه ومتوليه ، وقوي على قطب الدين ملكشاه اخيه .

وتوفي في هذه السنة القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش وكان من أهل الفضل ، والرياسة والنبل ، وهو قاضي العسكر الحاكم المحكم ، والكريم المكرم ، والسلطان يعول عليه في المهام ، وفي الأمور العظام ، وبؤهله للرسائل وأخذ المواثيق والعهود ، وتولى الولايات والعقود ، ولما أخذ شهرزور سلمها اليه ، وعول فيها عليه ، ومابرح بها حتى أنعم بها على صاحب اربل مظفر الدين فعاد القاضي شمس الدين فأرسله السلطان الى قليج ارسلان وأولاده ، ليصلح بينهم ويعيد امرهم الى سداده ، فتردد بينهم سنه . ولم تزل مساعيه مستنجحة مستحسنة . وعاد ووصل الى ملطية ، وقد استكمل من عمره الله العطية ، وتوفي بها في شهر ربيع الآخر من السنة ، وانتقل الى الله بأعماله الحسنة .

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بدمشق في داره ، وممالك الآفاق في انتظاره ، والأيام مشرقة بمطالع أنواره ، والليالي مترقبة صباحها لاسفارة ، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه ، منتظرون لجوابه ، والوافدون قاطفوا جني جنانه . والضيوف في فيوض انعامه عائمون . وبفروض حقوقه قائمون ، والفقراء في رياض صدقاته راتعون ، وفي كلاء كلاءته راعون وادعون ، ودار العدل بالفضل داره ، واسرار المنى بالمنائح ساره ، والسلطان يجلس في كل يوم وليله لاسداء الجود وابداء السعود ، وبث المكارم وكشف المظالم وتنفيذ المراسم وامضاء العزائم ، وتشييد الدعائم وتقرير العظائم ، والاهتمام بمصالح الاسلام ، ومناجح الأنام ، والاغتنام للمسلمين بما يتم في بلادهم من الخطوب ، ويتم من الكروب ، وبمجالسة العلماء ومساجلة

الفضلاء ، ومـوالاة الأولياء ، ومصـافاة الأصـفياء ، واعداء الملهوف ، واسداء المعروف ، ومل ملازمة البلد ، وخـرج عن حـكم الجلد ، وبرز الى الصيد شرقـي دمشـق بـزاد خمسـة عشر يوما ، وأوسع من لم يوافقه على الخروج لوما ، واستصحب معـه أخاه العادل وأبعدوا في البرية ، وظهروا عن ضمير ضمير الى الجهة الشرقية ، وطابت له الفرص ووافـق مـراده القنص ، ثـم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر ، ووجه بشره قد سفر ، ووافـق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتلقـي ، وسـعاداته في التـرقي ، ولما لقـي الحجاج استعبرت عيناه ، وكيف فاته من الحج ماتمناه ، وسـألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها ، وخصبها ومحلها ، وكم وصـلهم من غلات مصر وصدقاتها ، وعن المجـاورين والفقـراء ورواتبهـا وادراراتها ، وسر بسلامة الحاج ، ووضوح ذلك المنهاج ، ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام ، فتلقاه بـالاكرام وأنزله في كنف الاهتمام ،

ذكر وفاة السلطان رحمه الله بدمشق

جلس ليلة السبت سادس عشر صـفر في مجلس عادتـه ، ومجلى سعادته ، ونحن عنده في أتم اغتباط ، وأتم نشاط ، حتى مضى من الليل ثلثه ، وهو يحدثنا ونحن نحـدثه ، ثـم صـلى بـه وبنا إمامه ، وحان قيامه ، وانفصلنا باحسانه مغتبـطين ، وبـامتنانه مرتبطين ، وأصـبحنا يوم السـبت وجلسـنا في الايوان ، ننتـظر خروجه لوضع الخوان ، فخرج بعض الخدام ، وأمر الملك الأفضـل ان يجلس موضعه على الطعـام ، فجـاء وتصـدر وتـربع في دسته ، وجلس بسمته وسمته ، وتطيرنا من تلك الحال وتفألنا بحد ذلك الفـال ، ودخلنا اليه ليلة الأحـد للعياده ، ومـرضه في الزيادة ، وتوفي بـكرة الأربعـاء السـابع والعشرين ، ونقله الله في دسته العالي الى أعلى عليين ، ومات بموته رجاء الرجـال ، وأظلم بغروب شمسه فضـاء الأفضـال ، وغاضـت الأيادي ،وفـاضت

الأعادي ، وانقطعت الأرزاق ، وادلهمت الآفاق ، وخاب الراجون ، وغاب اللاجون ، وخاف الآمن وخاب الآمل ، وقنط السائل وشحط النائل ، وطردت الضيوف ، وذكر المعروف ودفن بالقلعة في داره وفجع الزمان بأنواره ، وعدمت الأيام صباحها ، والآمال نجاحها ، ودفن معه الكرم ، وغلب بعد وجوده وجوده العدم والعدم ، وبقيت تلك الأيام لا أفرق بين الدجى والضحى ، ولا أجد قلبي من سقم الهم وسكره صحح ولا صحا ، وحالت حالي وزال ادلالي ، وبطل حقي واتسع خرقي ، وتنازل جاهي ، وتنازق اشباهي واعضلت ادواء الدواهي وبقيت المعارف متنكره والمطالع مكفهرة ، والعيون شاخصة ، والظلال قالصه ، والأيدي يابسه ، والوجوه عابسة وعادت أبكار خواطري عانسة ، ونجوم قرائحي وشواردها الآنسة خانسة كانسة ، وبقي باب كل مرتجى مرتجا ، ومنهج كل معروف منهجا ، وظن الغنى عني ، واختلف في ضن الاحلاف بي ظني ، حتى تولى الملك الأفضل بدمشق مقام ابيه ، وقام بالأمر بعزم تأنيه وحزم تأتيه وعز تأبيه ، فعرف افتقاره الى معرفتي وفقري ، والى عطل الملك ومحله من غزارة حلب درري ونضارة حلي درري ، فكتبت له ، وحليت من الملك عطله ، ووشيت الكتب ووشعتها ، وجليت الرتب ووسعتها ، وهززت اليراعة • وأغزرت البراعة ، وهجرت الجماعة ، ولزمت القناعة .

ذكر الملوك من أولاد السلطان وذويه بعده

خلف السلطان صلاح الدين رحمه الله سبعة عشر ولداً ذكرا وابنة صغيرة ، وأبقى له مآثر أثيرة ومحاسن كثيرة ، ولم يخلف في خزانته سوى دينارا واحدا وستة وثلاثين درهما ، فانه كان باخراج مايدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرما ، وكان يجود بالمال قبل الحصول ، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول ، فاذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه ، وخص

الآحاد من ذوي الغناء في الجهاد بآلافه ، ولاجبه أحد بالرد اذا سأله ، بل يلطف له كأنه استمهله فانه يقول ماعندنا شيء الساعة ومفهومه أنه يعطى وأن كان يبطى . وإنه يصيبه بالذوال ولايخطي ، وكان ولي مجده بالشام الملك الأفضل نور الدين علي ، وأنه كاسمه سام علي ، ونور فضله كسمته جلي ، وهو الذي حضر وفاته ، وفاز بملكه فما يقال حضر وفاته ، وقام بسنة العزاء ، وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء الآلاء وابناء الأولياء ، وخلع على الأماثل والأمراء والأفاضل والعلماء ، وكان بالباب رسل ووفود وملوك ، ورجال لهم في مسالك الرجاء سلوك ، فخابوا وغابوا ، ونهبوا وما آبوا .

ذكر من تولى ممالكه بعده من اهله

تولى ولده الملك العزيز عماد الدين ابو الفتح عثمان مصر وجميع اعمالها . وابقاها على اعتدالها ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها . وأحيا سنتي الجود والباس . وثبت القواعد من حسن السياسة على الأساس . واطلق كل ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاه . وضاعف ما كان يطلق برسم العفاة . وجاد واجاد وابدى الكرم واعاد وبسط وقبض . وأبرم ونقض . وحل وعقد ، وبر وافتقد . ووضع ورفع ومنح ومنع . وابصر وسمع وضر ونفع . وقطع واقطع . واصل وفرع . ووعد وانجز . وأوعز بغنى من اعوز . وبرز وابرز . وجاهد وجهز . وعرض الكتائب . وفرض المواهب . واجرى الصدقات . وتصدق بالجرايات . وادر وادار . واجاز واجار . وأغنى وأسعد . وأدنى وابعد . وقدم امر بيت الله المقدس . واعتمد في اعتماد الأشوس الأسوس . وعجل له بعشرة آلاف دينار مصرية . لتصرف في وجوه ضرورية . ثم امده بالحمل . وأفاض عليه من الفضل . وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته . وقوى يده برعايته ووالى حمل الغلات من مصر الى القدس وابدل وحشته بوفاة السلطان من وفاته بالأنس . وجلس في دار العدل

ففصل ووصل . وأحسن وعدل . وقضى وحكم . وامضى وأحكم . وأحضر نواب ديوانه في ايوانه . واستعرض منهم قوانين سلطانه . واستقرى الضياع والاقطاع . وعمم الاصطفاء والاصطناع . وحل من اقام بالشام . وألزم جند مصر بالخدمة والمقام . وما أبقى إلا ما في يدي من الضياع . وصان حقوقي من الضياع . وأمر بتخليده . وأجد جدي بتجديده . فجاءني كتابه الكريم بكل كرم مكتوب . ومحبوبه من الرفد محبوب . ورعى في عهد الوالد . واضاف الطارف عندي من العرف الى التالد . هذا وأنا غائب . وبرائي رائب . ولسواء كاتب ونائب . وماحوجني في الذوال الى السؤال . وأغناني عن الارسال . ولم تفتقر مقاصدي ووسائلي الى تسيير القصائد والرسائل . وما اغرب بدار فواضله حلول بدار الافاضل . ثم اشفق من غدر الفرنج في فسخ الهدنة . فأتى من تجهيز العساكر الى البيت المقدس بكل ما في المكنه . ثم سمع بحركة المواصلة ومن بايعهم . وتابعهم وشايعهم . قد خرجوا في ايمانهم حانثين . ولعقد ايمانهم ناكثين . فخيم ببركة الجب . واستشار امراءه . أهل الرأي واللب . وجهز جيشا جائشا . وبعثا لعثار الدولة ناعشا . في كل مقدم مقدام . وهمام همام . وضيغم ضرغام . وقرم قمقام . فوصلوا الى دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم . وهز منهم اعطاف الاستكانة له بعد هزمهم . فرأى ان الحمد أعود والعود أحمد . وسيأتي ذكر ذلك في مكانه ، عند ذكر الملك العادل ومارفع الله من شأنه .

ذكر دمشق وما يجري معها ومن تولاها

وتولى الملك الافضل نور الدين ابو الحسن علي ولد السلطان دمشق والساحل وما يجري مع ذلك من البلاد ونفذت البلاد أوامره . ونفدت في الرجال نخائره . ورتب الأمور اجمل ترتيب . وهذب الشؤون اكمل تهذيب . وجلا السرير السلطاني بنوره . واسفر صباح الاقبال باقبال سفوره . وهدى وهدأ وملأ بالبشر المتبلج

والذشر المتأرج الملأ . وهذب واذهب . ورغب وارهب . ورتب وربت واصلى وأصلت . وأثر وأرث . ولم الشعث . وابهى وابهج . وأجد المنهج المنهج . ورجح ونجح . ومن وشح ، وارسى وارسخ . وبذ وبذخ . ووعد واوعد . وجدد الجدد . واذاع بحميته سر حمايته واعاذ . ووجد الملاذ من وجد منه الملاذ . وامر وأمر . ونضر ونظر . وعز واوعز . وحاز وحز . وساس وراس وملك الباس والناس . واشاع البر واعاش . واشبع الجياع وروى العطاش . واستخلص ذوي الاختصاص . واختص اهل الاخلاص . ونهض واستنهض . وعرض واستعرض . وربط عزمه الرباط واحاط علمه وحاط . وحفظ أولي الحفائظ . ولاحظ العرف وعرف انه لا حظ لغير اللاحظ . وصنع واصطنع . وابدى وابدع . ومد الظل واسبغ . وسوى الفضل وسوغ . واهمى العوارف . وامهى الرواعف . وحقق الحقوق . ورتق الفتوق . وضم الملك ونظم السلك . وجلس في دار العدل ، وأتى بالحكم الفصل ، وحزم وجزم ، وعزم والتزم ، وزاد وزان . وأغاث واعان . وابر ارباب الهوى . وامر من ارباب التقوى القوى . وحمى النابه . ومحا المكاره . وفاض بغزارة العطايا . واستفاض بطهارة السجايا . وآوي اليه اخوته . وضم جماعته . وجهز اخاه الملك الظافر مظفر الدين خضرا . واصحبه عسكرا مجرا . وانهضه لانجاد عمه الملك العادل . فانار في فضاء الفضائل . وسار الى الجحفل الحافل . فالتزم الشروع . وهزم الجموع . وقارع القروم . وكان الهازم والعدو المهزوم .

وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك وما يجري معها في المملكة الافضلية داخلة . وامداد طاعات الولاة والاولياء بها متواصلة . وصاحب حمص والرحبة الملك المجاهد اسد الدين شيركوه بن محمد ابن شيركوه ابن ابن عم السلطان وهو اثير الشأن اثيل المكان .

فوصل الى دمشق مطيعا . واسر صدقه ونشر صداقته منيعا مشيعا . فأحلى له الملك الأفضل جنى شهياء واحله جنابا وسيعا .

وعقد له حبا الحب ، وحياه بكل ما سفر عن سفور مودة القلب . ووفور مواد القرب .

وكذلك وصل صاحب بعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب طائعا . وللأمر الأفضلي تابعا . فأدناه واجتباه . واحبه وحباه . وأسناه وأسماه . وآواه وآساه . فتأكدت بينهم القرابة المتشجه . وتشبكت اللحمة المنتسجه . وتمهدت الآصرة الممتزجة . وتفتحت أبواب الالفة المرتجه . وتوافوا على التوافق . وتصادقوا على التصادق . وتعاضدوا على الأخذ بالتساعد . وتعاقدوا على ترك التقاعد .

ذكر حلب وما يجري معها

وتولى حلب واعمالها وحصونها ومعاقلها . وكرائم البلاد وعقائلها . الملك الظاهر غياث الدين ابو الفتح غازي . وهو برجاحته وسماحته للطود والجود الموازن الموازي . وتلك مملكة اقطارها واسعه . وامصارها شاسعة . فحواها وحماها . وبماء العدل رواها وقواها . واعز رجال الرجاء . وهز اعطاف العطاء . ورحب لورادة . وروادة رحابه . وسحب بحيا الاحياء سحابه . وابرت مبراته . واثرت مأثراته . وسح وصح غيثه وغياثه . ورعى رعيته فشبعت ورويت ظماؤه وغرائه . وزخرت امواجه . وزهرت بثواقب المناقب ابراجه . وصابت سماء سماحه . وطابت صبا صباحه . وعزت بسيرته كتب التواريخ . وعزى قلمه وسبقه الى عطارد والمريخ . وسعدت وفوده . ووفدت سعوده . وآثر من امره النفاذ . وكثر بظله اللياذ . وادنى الأبرار . واقصى الأشرار . وخص الأعزة الخواص . وتمهد لسلطانه الأساس . واطرد لاحسانه القياس . ووجد من عثر من ايد يده الانتعاش . وعشا الى جدواه المجتدي وعاش . وفرض الفرص . ورفض الرخص . وأدى الفروض . وقضى القروض . واستدنى من المناجح شاحطها . واستدرك من المصالح

فارطها . وملك خلاق التحفظ . وسلك طرق التيقظ . وفرق وجمع . وخرق ورقع . وغلب وبلغ . ودمى اهل الكفر والذفاق ودمغ . وشفى واشتفى . وكفى واكتفى . وراع وراق . وفات وفاق . وطلب وادرك . وأخذ وترك . وفاض بالفضل . وراض بالعدل . وقدم الحزم . وصمم العزم . وأحيا السنن . وأولى المنن . ولها بالجد عن اللهو. وانتهى بالعدو الى اليأس المر وبالولي الى النائل الحلو . وأمر ونهى . وأوهن معاقد ذوي المكايد وأوهى . ووف للوفي . وصفا الصفي . وأقر البيره واعمالها وما يجري معها على اخيه الملك الزاهر مجير الدين داود . ولم يزل مقبولا امره غير مردود . ودخل في امره صاحب حماه . وأعزه وحماه . وهو ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين واتسع الملك واتسق السلك . وكاتب الجوانب وراسل . وفارق من رأى وواصل . وطال باعه . واطاع اشياعه . وهمت همته بالزيادة وسمت اسمت السيادة .

ذكر الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب اخي السلطان وما جرى له بعد وفاة اخيه

كان الملك العادل مع السلطان في الصيد قبل وفاته . وكان موافقه ومرافقه في مقتنصاته . فلما عاد السلطان الى دمشق ودعه ومضى الى حصنه بالكرك للاستراحه، غير مطلع في سر الغيب في الاقضية المتاحة . فنابه النائب . ولم يحضر وقت احتضاره الاخ الغائب . فلما عرف وصل الى دمشق بعد ايام ولم يقم لتنفيس كرب الحادث ولم يحدث نفسه بمقام . ولم يرم ثلاثا ولم يرم لباثا . ورحل طالبا لبلاده بالجزيرة . حذرا عليها من اهل الجزيرة . وكان السلطان جعل له كل ما في شرقي الفرات . من البلاد والولايات . ومضى كما ومض بارق . وتخوف ان يطرق بلده طارق . فلما وصل الى الفرات . وجد مما خافه دلائل الفترات . فأقام بقلعة جعبر . ولم يحشد ولم يستحضر العسكر رغبة في السلم والسلامة . ومحبة للدعة المستدامة . وسير الى الولايات الولاة . ووصى برعاياه الرعاه .

واستناب في: ميافارقين، وحاني، وسميساط، وحران، والرها . وشحنها بالشحن واستقام امرها وحسب ان الاعداء اذا سمعوا بسمعه . جمعوا لجمعه وتدافعوا لدفعه . وسكن وسكت وتبين وتثبت . وعلم العدا أنه في خف فخفوا وعرضوا وصفوا . وما كفاهم ماهم فيه فهموا وماكفوا . وسافوا تراب الطمع واسفوا . فجرت حركتهم وهلكتهم . وانهب الله عند مجيئهم بركتهم .

ذكر اهل الشمات وماقدر الله لجمعهم من الشتات

كان الامير بكتمر صاحب خلاط . قد هجر الاحتياط ووصل الذشاط . وضرب البشائر لرزء صلاح الدين . وظهر في الذوب الخمس بشعار السلاطين . وتلقب بالملك الناصر . وحدث امله بجر العساكر . وراسل صاحبي الموصل وسنجار . وطير اليهم كتب الاستنفار . وضم اليه من ماردين ، ماردين ، وطار وطاش . وارتاش وانتاش . وخلط من خلاط الاوشاب والاوباش . فبينا هو في اتم غرور . واذم سرور . واحب حبور . واشب سفور . وارقد عين . واغفل قلب . واذهل لب . واطول امل في اقصر امد ، واكثر مدد في اقل مدد . وقد خرج من الحمام . ولم يدر انه داخل الى مغتسل الحمام ، استشهد على ايدي الاسماعيلية . ولعل الله غفر له ونقله بشهادته الى جنته العليه ، وذلك بخلاط يوم الاثنين رابع عشر جمادى الاولى من هذه السنة . وكان ايامه كانت احلاما رؤيت في السنة . واول بادىء بالخروج متولى ماردين فانه مرد . وحشد المدد ، ونزل على حصن الموزر . بالعزم المزور والجد المزور . وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن اعمال مادرين . حين كان اهله عليه ماردين . فلما صالحهم استبقاه واستثناه . وأضافه الى نائبه بالرها واعطاه . ثم تحرك عز الدين اتابك مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل . وخرج في الجحفل الحفل . واضافه اخوه عماد الدين زنكي بنصيبين وخرجوا لنداء اللقاء مجيبين . وقدموا الرسل الى الملك العادل سيف الدين . وقالوا : تخرج من بلادنا .

وتدخل في مرادنا . فكتب الى بني اخيه يستنجدهم ويستنفرهم . ويستصرخهم ويستنصرهم . فانجدوه بالامداد . وامدوه بالانجاد . فجاؤوه من كل فج ووافوه فوجا بعد فوج . وكان انجاد حلب اقرب . ولدر الاسعاف احلب . ولما عرف الملك الافضل اغتنم واهتم . وجمع عسكره وضم . وخص وعم . وكتب الى صاحبي حمص وبعلبك . واستدعى عسكرهما الترك . فسار اخوه الملك الظافر مظفر الدين خضر . وروض عسكره بورق الحديد الاخضر نضر . والملك العادل لقدومه منتظر . واما المواصلة فانهم ماا سرعوا بل ابطأوا ، وماا صابوا بل أخطأوا . وسمعوا ان الامداد العادلية الوافية متوافيه . وان فئته كافة كافيه مكافيه . فتجندوا وتجبذوا وكادوا قد وصلوا الى رأس عين فأقاموا وسكنوا . والملك العادل مخيم بظاهر حران في جموعه وجنوده . واعلامه وبنوده . ومساعديه وسعوده . وعزمه على اللقاء مصمم ، وقلبه بحب الظفر متيم وجده غالب . وحده سالب . وجده لظباء النصر جالب . ولطيب الذكر جالب . وسيف سيف الدين باتر واتر . ولحظ الشمس من غبار خيله الساتر فاتر . وتقارب العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه . ورجال اليزك تتناجى وتتناجه . وكان من قضاء الله المحتوم ، وسر قدره المكتوم . تقليل غروب القوم وتقليلهم . وحار تأملهم وخار تأميلهم . وجفل رألهم ورتع رعيلهم . وذلك بما قدره الله من مرض اتابك صاحب الموصل . ولم يطق الاقامة بالمنزل . واشفى على الخطر . واشرف صفو حياته على الكدر . فعاد الى الموصل في محفه . ورجا ان يتبدل ماالم به من ثقل الم بخفه . وقهقر عماد الدين راجعا ولمن وثق به اشياعه فاجعا . وتضرع صاحب ماردين وتذرع . وتشفع بالامراء والاكابر وخضع . حتى وقع عنه الرضا . وصفح له عما مضى . واجري على القاعدة السلطانية معه . وكان قد ضاق به الفضاء الرحب لولا العفو عنه وماوسعه . ورأى عماد الدين ان القوم خانوا واستكانوا . ومارعوا له العهد كما كانوا . فاضطر الى الانكفاء وكف عن اللقاء . فخلا الجو . وجلا الضو . وعلا الذو . وأتى الملك العادل الخبر بوصول ابن اخيه الملك الظافر الى الفرات . في عسكر دمشق أهل الثبات . فكاتبه بمنازلة سروج وهي من اعمال

عماد الدين . وامده بابن تقي الدين وابن المقدم عز الدين ليث القرين . فنزلوا على سروج يوم السبت ثامن رجب وفتحوها يوم الاحد تاسعة واستولوا على البلد واماكنه ومواضعه . ورحل الملك العادل منتصف رجب الى الرقة وتسلمها في العشرين منه . وكانت اليد البيضاء فيها للملك الظافر على ماذكر عنه . ثم رحل وتملك بلد الخابور جميعه ، وعاد كل من عصاه من مقطعيه مطيعه . وجاء الى نصيبين ونزل بظاهرها . وشرع في ضم نخائرها . فجاءت الرسل العمادية في طلب الصلح . واسفر ليل الحرب بسني السلم عن الصبح . ورحل ونزل دارا . وكان صاحبه دار مع القوم ومادارى . فبسط عذره . وقبض ذعره . واتاه خبر وفاة صاحب الموصل وتسليم بلده من بعده . الى نور الدين رسلان شاه ولده . وجرى بينه وبينهم صلح . وكان له في كل سفرة تجارة وربح . وكتب الينا ان اهل خلاط كاتبوه . وعلى تأخره عنهم عاتبوه . وان كل صاحب حصن قد ضبط موضعه . وانتظر مطلعه . فانه تولاهم بعد بكتمر المعروف بالهزار ديناري . فلم يرضوا بايالته لخلاط ولم يروه كفوا لتلك الهدي . ثم اشرف العادل على خلاط . فوجد اهلها قد كملوا الاحتياط . ورأى ان البرد يشتد . وامد الحصر يمتد . فعاد الى حران والرها ، واعرض عن مخالطة خلاط وتأخر الى الربيع امرها .

فصل في المعنى أنشأته الى الديوان العزيز في اخر رجب عن الملك الافضل

لا شك في احاطة العلم الاشرف بحال الذين الذين حالوا عن الانصاف بالانصاف ومردوا ومروا لخلاف الخلاف . وعادوا عن خلق التلافي الى الاتلاف . وبددوا بالانتظام في سلك الغدر شمل الائتلاف . ونكثوا بعد ايمانهم . حتى قيل كفروا بعد ايمانهم . وباءوا في بغيهم بغيهم . وابدوا قوتهم في وهبهم وعزموا انهم اذا زعموا نالوا فرصة . ووجدوا اذا جدوا في العزيمة رخصة . وجاؤوا

الى البلاد التي للخدم من انعام امير المؤنين صلوات الله عليه ليتملكوها . واستسهلوا سبل الضلالة بعد الهدى فسلكوها . واغتروا باعتزازهم واعتزوا باغترارهم . واصيبوا اذ لم يصيبوا ببصائرهم وابصارهم . ودخلوا في دائرة السوء وخرجوا من ديارهم . واجتمع صاحب الموصل واخوه صاحب سنجار وصاحب ماردين وحسدوا وحشدوا وماالظن بشر الحاسدين الحاشدين . ووعدهم الشيطان فصدقوا كذب الواعدين ، وكان العم الملك العادل سيف الدين قد توجه الى تلك البلاد ؛ لابقاء امورها على السداد . واثقا منهم بالمواثيق . محتفلا بالوفاق الحافل الافاويق . وهو في خواصه . وذوي استخلاصه . لم ينتظم عسكره ولم ينضم اليه معشره . ولم يصف لدفع الشوائب وردع الذوائب مورده ومصدره . فلما عرف نكرهم . وعلم في مكرهم مكرهم . توافت اليه الجموع . وحنت على قلبه الضلوع . وحنت الى اصله الفروع . وتوافد اليه بنو اخيه في الجنود . وتوافوا نجدة ساعدت السعود وامد الاخ الملك الظاهر من حلب بالامداد المتظاهرة . والانصار المتناصرة . وندب الخادم اخاه الظافر خضرا وانهضه . وسار معه عسكره الذي بدمشق عرضه . وسمع الاخ الملك العزيز خبر القوم . وانهم من حول ورد الردى على الحوم . فاخرج المضارب وابرزها . واذفق في العساكر وجهزها . وذكر عدة النجدة فانجزها . واهتبل فرصة الفريضة وانتهزها . واقبل على نخيرة الفضيلة فاحرزها . وتحركت السواكن . وثارت الكوامن . وهاجت الاقطار . وماجت البحار ، وشابت الاكدار ، واصابت الاقدار . واظهر الله قبل الاجتماع معجز اياته في اهل الشمات . وخص جمعهم بالشتات وحبلهم بالبتات ، وحص من تلك الثبات اجنحة الثبات ، وشغل كل منهم بوباله وباله ، وحطه من بقاع اعتلائه الى حضيض اعتلاله . واعادهم على اعقابهم ناكصين ، وبعقابهم ناكسين ، وفي ارائهم وارابهم ناقصين واظهر الله في كل واحد من اعداد الاعداء اية للعادة خارقة . وقدرة لاقدار الاولياء للسعادة خالقه . وقتلهم وماقاتلوا ، وقابلهم وماقابلوا . و غادر الغادرين عبرة للمعتبرين ، وعظة للمتفكرين . وعلم صاحب ماردين انه اخطأ وماصاب ، فابان عن ندمه واناب ،

وتعرض للعفو عنه وتضرع ، وتشفع بالامراء في امره وتذرع ، فأبديت له صفحة الصفح ، وعادت له بعد عادية الخسر عادة الربح ، واجري على القاعدة المستقرة له في عهد الوالد رحمة الله عليه . فرضوا بما فرضوه من الطاعة وثابوا اليه . وكان الاخ الملك الظافر خضر قد وصل الى الفرات . حين حكم الله لجموع اولئك بالشتات ، فعبر الى سروج يوم السبت ثامن رجب . وقلب العدو من الفتح الذي وجب وجب ، وفتحها يوم الاحد ضحوة . وجاءت هذه المنحة من الله حظوه . ورحل الملك العادل بالعساكر الى الرقة لاسترجاع وديعتها المستحقة . وهذه ببركات استمرار العبيد على طاعة المواقف المقدسة وبيمن الائتمار بأوامرها . وسفور الوجوه لمواجهة سوافرها . وماالسعادة الا لمن شملته سعودها . وماالجد الا لن وصله جودها ، وماالكرامة الا لمن كرمت عنده بالوفاء عهودها ، وماالعصمة الا لمن لزمت في حمده النعماء عقودها .

ذكر سيف الاسلام باليمن

واقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن ايوب اخي السلطان ، وهو هناك سلطان عظيم الشأن ، مستول على جميع البلدان . مختص في مكانه بالامكان . وكان قد وصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بايام . فلم يظفر بمرام . ووصل كتابه الى اخيه . وهو غير عالم بتوفيه . فلما استقر الملك الافضل على سرير ابيه كاتب عمه سيف الاسلام بغمه . وهم في كتابه بما كتب الله من همه . والكتاب باذشائي عن الملك الافضل يشتمل على شرح ماالم . وخص به الرزء وعم .

وهذا كتاب يشتمل على سيرته وكتبته جميعه وهو صدرت هذه المكاتبة معربة عن النبأ العظيم . والخطب الجسيم . والرزء العميم . والحادث الاليم . والكارث المقعد المقيم . والنائب الباغت . والمصاب الساحت . والفجيعة الفاجية . والذكبة الناكية . والطارقة الطارية .

والملمة المؤلة والبلية البارية . والواقعة الرائعة . والصدمة الصادعه . والحدثة اللافحه . والروعة الفادحة . والغمة التي غامت بها الايام . وغم لها الانام . واعتل منها الاسلام . واحتل النظام . فقد عدمت المطالع ضياءها . والمشارع صفاءها والثغور سدادها . والامور سدادها . والعيون قرتها والنفوس قرارها . والقلوب ثباتها والجفون غرارها . والايدي أيدها والوجوه سفورها . والصدور انشراحها . والاسرار سرورها . فقد فقدت الدنيا بهجتها . وضلت العلياء محجتها . واهتدى الضلال الى الهدى . وأقوى نادي الندى . واقفرت مغاني الغنى . واكفهرت مجالي السنى . وأمرت مجاني المنى . وخفيت مناهج المناجح . وعطلت مناهل المنائح . وعميت مذاهب المواهب . واظلمت مطالع المطالب . وارتجت ابواب الفتوح . ودجت أضواء الوضوح ودرست معالم المعالي . وطمست زواهر الليالي . واضطربت الدهماء . واضطرمت الدهياء وبطلت مواسم الحق . وأبهمت مظالم الخلق . وانقطعت مسالك الجهاد . وتفجعت ممالك البلاد . وأخلفت عدات الاعداء على الاعداء . وانكسفت أنوار آمال الاولياء . وذلك بما اجراه الله من قضائه المحتوم . وأظهره من سر قدره المكتوم . بمصاب مولانا الملك الناصر روح الله روحه . وروض في جنان رضوانه وغرفات غفرانه ضريحه . فقد عظم الخطب وجل . وحل عرى الجلد حين حل . وثلم غرب الصبر وفل . وأجرى غرب الدموع . وازكى كرب الضلوع . وبت حبل اللاجين . وشت شمل الراجين . واعلمنا أن الدنيا الدنية حبالها رثاث . وحباؤها غثاث . وعقودها انكاث . وسهولها أوعاث . وقصورها اجداث . وسرورها غرور ومواهبها احداث . وسكونها قلق . وامنها فرق . وصحتها سقم . وأملها ألم . وغبطتها ندم . ووجودها عدم . وبقاؤها فناء . ونعيمها بلاء . وراحتها عناء . وملكها هلك . وسترها هتك . واخذها ترك . وسلمها حرب وصلحها فتك . ووفاؤها غدر . ووفاقها مكر . وعرفها نكر . ووصلها هجر . وخيرها شر . ونفعها ضر . وجبرها كسر . ومتاعها قليل . وباعها في التطاول طويل . ومالعثارها مقيل . ولافي ظلها مقيل . ولاارب فيها لأريب . ولا الباب فيها للبيب . فان

ظلها قالص . وفضلها ناقص . وعمرها قصير . وغنيها فقير . وريها جرع . وزيها خدع . وحليها عطل . وسعيها زلل . وإجداؤها إجداب وإعطاؤها إعطاب . وإصحابها إظلام . وإرغابها إرغام . وسماحتها بخل . وسجاحتها عتل . وعقدها مفسوخ . وعهدها منسوخ . وربحها خسار . وجرحها جبار . ويسارها إعسار . وخصبها محال . وحبها محال . وعمارتها شعث . وشيمتها عيث وعبث . وترابها تراث . ولالمسكنها اساس ولالساكنها اثاث . ولاكيدها في كبدها يد . ولالمكرها في جد مكرها جدد . والسعيد من استعد في معاشه للمعاد . واستكثر مدة مقامه في الدنيا لسفر الاخرة من الازواد . ومن نظر اليها بعين القلى . وعرف انها دار البلاء والبلى . وتقوى فيها بالتقوى . وجد في الاعراض عن جدواها للفوز العرض بالجدوى . ولقد كان السلطان السعيد قدس الله روحه بحقيقتها عارفا . ولزخرفها عائفا . ومن ملكها آنفا . وعن مالها متعففا . فاشتغل عن الدنيا بالدين . وخصه الله بتاييده في علم اليقين . واقتدى بسنة النبي صلوات الله عليه فما زاغ بصره وما طغى . (ونهي النفس عن عن الهوى . فان الجنة هي المأوى) (النازعات : ٤٠ ـ ٤١) ووقف حياته على احياء معالم الهدى . والاعلان بشعار التقى . وإعلاء منار الجهاد . واشاعه سنن العدل والاحسان في البلاد والعباد . وافاضة سجال الفضل والافضال . حتى كفل جوده بفيض الارزاق ووفى بنجح الامال . واخلص لله عمله . ولامك ملكا ولاتمول مالا الا في سبيل الله انفقه وبذله . وكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:(من كان لله كان الله له) . فلا جرم اذل الله له الملوك الأعزة . ووهب لاعطاف الدولة التباهي بملكه الهزة . وملكه الاقاليم والامصار . واجرى باقداره الاقدار . فازال عن مشارع الشريعة الاكدار . وعطل البدعة بمصر واليمن والشام . وقمع اعداء الاسلام . ومد الله في عمره حتى بلغ المراد . وفتح البلاد . ووفى في حق الجهاد الجد والاجتهاد . وقدر على ما أعجز عنه الملوك . ونهج في نصره الدين نهجا اعوز من قبله فيه السلوك . وأخرج الفرنج عن الساحل وابادها . وملك عليها ديارها وبلادها . واوهى على الكفرة معاقد معاقلها . وطال بحقه على

بـاطلها . واقصى عن المسـجد الاقصى مـدنسيه . وازال عنه ايدي غاصبيه . واصرخ الصخرة المطهرة وطهرها من الارجاس . وابعـد عنها اجناس الانجاس . وقهـر الكفـر وخـذله . ونصر الايمـان واخذله . واحيا للكرم كل سنة حسنة . واستمرت محـاسن ايامـه سنة بعد سنة . وتعدلت بعدله الجوانح . وتذللت بباسه الجـوامح . ودانت ودنت له الممالك القاصية . واذعنت إذعنت لحـكمه الامـاني العاصية . وملكت القلوب والقبول مهابته ومحبته . وعمت الخواص والعوام عارفته وعاطفته . ونفـذت في الشرق والغـرب مـراسمه . وقامت بالحمد والشكر مـواسمه . ووفـت بـامل الداني والقـاصي والطائع والعاصي مكارمه . واسعده الله وامهله . حتى حقق في ذويه امله . وولى في كل اقليم من يعمل له في العدل والاحسان عمله . ثـم توفاه حميد الاثر . كريم الورد والصدر . ظافر الرجاء رائج الظفر . صالح العمل . ناجح الامل . طاهر القطرة . ظاهر النصرة . كاسيا من الفخار . عاريا من العار . مرتديا بثوب الثواب . مـرتويا مـن صوب الصواب . مبتهجـا بنصرة النعيم . متـارجا بعـرف نسـيم التسنيم . وما كان ابهـج الايام بـايامنه . والاعصـار بمـزاينه . والامصار بمحاسنه . والاسلام بسلطانه . والآفاق بسني احسانه . وما كان اسعدنا بجدوده . واجدنا بسعوده . واغنانا بعدله وجوده . فقد فقد الصباح فلا سنى . ودفن السـماح فـلا جـدوى ولا جنى . وغاض البحر فلاغنى . وهـو الطود فلا ثبـات . وذوى الروض فـلا نبات . ووهى الركن فلا سند . وانتهى اليمن فلا جدد ٠ وغلب الكمد فلا جلد . وعز العزاء فلا عزه . ولاقوة ولا عضـد . إنا لله وإنا اليه راجعون . ولأمره تـابعون ولحـكمه طـائعون . ولا راد لارادتـه . ولاصاد لمشيئته . ولاصادف لمصادف قضـائه . ولا صـارف لصرف بلائه ولقد كادت الانوار تغرب . والانواء تعزب . والمنابـع تغـور . والصنائع تبور . والاحوال تحول ٠ والاهـوال تهـول . واضـواء المعارف لاتضيء . وافياء العواطف لاتفيء . وزهر السماء لاتشرق . وازهار الروض لاتؤنق . ومعـاقد الاسـلام تهـي . وميامـن الايام تنتهي . لولا ان الله تدارك الارمـاق بـألطافة . وتـلاف الامـال باسعافه . وجلا وجه النعمى من خلال البؤس . واهدى البشر بعـد

العبوس . وانزل السكينة عند الزلزال . على النفوس . واجرى الدولة على احسن العوائد . وارشد المقاصد واثبت القواعد . من استمرارها على الالئام . واستقرارها في النظام . واستدرارها بافاويق الوفاق . واهلال بدورها غب المحاق . وطلوع شموسها من الافاق . وارتفاع فروعها في سماء السمو . وامتداد اصولها في منابت النمو . وانفتاح احداقها النواظر عن نور الابصار . وانفتاق حدائقها النواضر عن نوار الازهار . حتى اجتمعت الكلمة المتفرقة واتحدت . وانتظمت الالفة المتبددة وتساكنت . وسكنت القلوب الراجفة وانست . وسكتت الالسنة المرجفة وخرست . وانارت الخواطر المظلمة . وافاقت الظنون الراجمة والافكار المنقسمة . وزاد الرونق وزال الرنق . وانجلى الغسق . وتجلى القلق . واستقامت الامور . واستنامت الى حفظها الثغور . ووصلت الكتب العزيزية والظاهرية من مصر وحلب . بكل ما انجح الارب ووصل السبب ومرى در النصر وحلب . وبكل ما اظهر القوة وقوى الظهر ° وشد الازر . وامر الامر . وسر السر . ونصر الحق وحقق النصر . من الموافقة والموافاة . والموالاة القاضية من الجدة المنجدة بالموالاة . والمتابعة والمشايعة في كل امر يبرم . وكل حكم يحكم . وكل عزم في قمع العدا يصمم . وكل عقد في نصر الهدى يلزم ويتمم . ووصل المولى الملك العادل فتولى امر المملوك بكل ما اوفق ايثاره . واشاع على عادة الوالد رحمه الله تعالى شعاره ورفع مناره . واخلى من كل شاغل باله ورفه اسراره . واراح افكاره . وما في الجماعة الا من خطب الجمعية وخطب في الجمع ، واعرض عن الهوى للحق المتبع . فالكلمة متحدة وإن كانت الانفس متعددة ، وما اخلقت هذه الدولة بل استمرت على تجدد الايام متجددة . وانما اشفقت في حال الصدمة الاولى وبدء الرزية الطولى على بيت الله المقدس . ومن غدر الفرنج بقصدها فان الغدر شيمة لهم في الانفس . فوقى الله شرهم . ودفع مكرهم . واوهى امرهم ، ولم يزل من قلوبهم الرعب . ولم يؤثروا على الصلح الحرب . بل طلبوا بقاء السلامة بابقاء السلم . وخطبوا اجراءهم في الوفاء بعقد الهدنة على الرسم . وبركات نية المرحوم شملت . ووصاياه نفذت وكملت . وتوجه الملك العادل الى بلاده

الجزرية . شرقي الفرات لاصلاح تلك الولايات . واخراس شقاشق الهادرين بالارجاف من اهل الشمات . ويرد بالباس مكايد الحاسد الحاشد . والحمد لله الذي اجد الامن وقد عرت المخافة . وانزل الرأفة وقد فجأت الافة . وابقى الاسلام بعزه والكفر بذله . وثبت قواعد الملك الناصري بجمع شمل اهله . واحيا بهم سني احسانه وعدله . وشيمتي افضاله وفضله . وفي دوام اقبال المجلس السامي دوام اقبالهم . ونظام احوالهم . وسبوغ ظلالهم وبلوغ امالهم .

ذكر ما افترضه الملك الافضل من خدمة دار الخلافة المعظمة واذفاذ رسوله بعدة والده مع هدايا وتحف سنايا

لما استقر الملك الافضل بدمشق في مقام والده . وشفع طارف ملكه بتالده . واضاف موروث الفضل الى مكتسبه . واكرم نسبه بكرم حسبه . بدا بالاهم الافرض . والاتم الامحض . فقدم الى الديوان العزيز النبوي نجابين بالكتب . وانهى الحال فيما الم من الخطب . ثم ندب ضياء الدين القاسم بن الشهر زوري في الرسالة . الى منزل الرسالة وموقف الجلالة . واصحبه عدة والده في الغزاة . اوان لقاء العداة . وسيفه ودرعة وحصانه واضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ما استنفد وسعه وامكانه . فما تهيا مسير الرسول الا في اواخر جمادى الاخرة . حتى حصل كل ما اراده من الهدايا الفاخرة . وحتى كاتب مصر وحلب واعلم بمسير رسوله . حتى لايظن انه انفرد بسوله . وقصد مدارة اخوته . وفضل بفضل نخوته . وذلك بعد ان جدد نقش الدينار والدرهم بسمتي امير المؤمنين . وولي العهد عدة الدين . وامرني بانشاء الكتب وتحريرها . وتقريب المقاصد فيها وتقريرها .

فصل من الكتاب الى الديوان العزيز بعد ذكر الدعاء

اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء . وقلبه معمور بالصفاء . ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء . ولسانه ناطق بشكر النعماء . وجنانه ثابت من المهابة والمحبة عن الخوف والرجاء . وطرفه مغض من الحياء . ووجهه مقبل نحو قبلة الاستجداء . وهمته في العبودية فارعة ذروة العلاء . وهو للارض مقبل . وللفرض متقبل . وبالطاعة ماثل . وللاستطاعة باذل . وللجهد والاخلاص . عارض ضارع . وفجر فخره من الصحة والمناصحة صادق صادع . وهو يمت بما قدمه من الموات . واسلفه من الخدمات وذخره ذخر الاقوات لهذه الاوقات . واتخذه عصمة من النائبات . وعونة من الطارقات . ومؤلفا للشمل عند شمول الشتات وعروة للاعتصام بها في ازمن الازمات . وسلوة من الاسى واسوا الجراح المصيبات . ولاخفاء بما اخافه . وفاض له من بحر البرح وضافة . واغاض نطافه . وعاق اوان رجاء جني النجاح قطافه . لولا ان الله تداركه بفضله واولاه الطافه . فانه دهمه ما هدمه وفجأه ما فجعه . وبغته من الرزء ما صد عنه العيش وصدعه . ونابه مارابه . وجرعه مصابه صابه . ووافاه من وفاة والده رحمه الله ماكدر صفو الحياة . ومحا عن صفحة صبحه اية الآياه وألم بألم الأمل . وأحال الحلى الى العطل . وحلأ عن النهل والعلل . وأذهب بهجة الأيام . وأشمت الكفر بالاسلام وسر الشرك منه ماساء التوحيد . وقرب من اشفاق القلوب واشفاء الكروب البعيد . وعطل الجهاد وأراح الحديد . وشب حقود العداة على أنها ماشبت الا لتخمد . وشام حدود العتاة على أنها ماشيمت الا لتغمد . وهذا الحادث ارجف المرجفون بحديثه . وأثاروا كوامن الثار وحركوا سواكن الأوتار بتأثيره وتأريثه . وأخرج أهل النفاق رؤوسهم من كل نفق . وعاد ثبات ثباتهم الى نفار وقلق . ومن كان مستمسكا من ولاء الدار العزيزة بالعروة الوثقى . مستلئما من عدد أيامها ومسدد انعامها بالدرع الأقوى الأوقى . فانه لايحتفل بحفول

أخلاق أهل الخلاق . ولايتحلحل طود حجاه الراسي وحصاه الراسخ لعواصف ذوي الاجحاف . وقد أحاطت العلوم الشريفة مجدها الله بأن الوالد السعيد . الشديد السديد . المبير للشرك المبيد . لم يزل أيام حياته والى ساعة وفاته . مستقيما على جدد الجد . مستنيما في صون فريضه الجهاد الى بذل الجهد . مستنفدا في كل مايحوز به المراضي الشريفة وسعه . ومستفرغا طاقته في الشغل الديني الذي يهدي بصره وسمعه . فكم قبض يدا بسطتها بالفتنة الفئة العادية . وكم فرض سنة أعلنت سناها للمجتلين وأحلت جناها للمجتدين الدعوة الهادية . ولكم أخرس دعاة الأدعياء وحرس ولاياته الأولياء وكانت بكتائبه وكتبه سيوفه وأقلامه للأقاليم أقاليد . ولم تزل جنود الشيطان وجموع الطغيان في الممالك بمماليك الدار العزيزة وعبيدها عبابيد،وأمطر بلاد الكفر من دماء أهلها شآبيب . وأقام بها منار الاسلام ومنابره لما أناب عن أعوادها أنابيب وأسعرها من كماة الوغى وحماة الورى بمساعير وأنجدها بضوامره . ضوامن الظفر بمضامير ، وهذه فتوحه تفوح بنشر النصر وتضوع . وعقوده تروق في سلك الملك وتروع ومصر بل الأمصار باجتهاده في الجهاد شاهدة،والانجاد والأغوار في نظر عزمه واحدة والبيت المقدس من فتوحاته . والملك العقيم من نتائج عزماته . وتوفره على العبودية لمالك رقة سيدنا أمير المؤمنين أوفر حسناته . وكل ذلك في طاعته ومناصحته وبركاته . ومازال ظاهرا على العدا . ناصرا للهدى معليا معالم العلى . محييا مواسم التقى . مسنيا سنن الشرع وفروضه مديما بأعباء الطاعة بقدر الطاقة نهوضه وهو الذي ملك ملوك الشرك وغل اعناقها . وأسر طواغيت الكفر وشد وثاقها . وقمع عبدة الصلبان وقصم اصلابها . وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها . ونظم اسبابها وسد الثغور . وسدد الأمور وأذل للدار العزيزة كل عدو . وأخذ لها على يد كل ذي عتو . واستمرت على الأيام مساعية في الخدمة ناجحة . ومعانيه على موازين الموازين راجحة.وسيرته حسنة وحسناته سائرة ومحاسنة ظاهرة • وسريرتهطاهرة • وختم الله له بالسعادة،وتوفاه على الوفاء بالعبودية والعبادة . وقضى وقد

قضى من آرائه آرابه وقدم بين يديه أعماله الصالحة ووفاه حسابه . وقبض وعدله مبسوط ، وأمره محوط . ووزره محطوط . وعمله بالصلاح مذوط . وأمله بالنجاح مشروط . وملكه بحفظ الله وكلائته مضبوط . والمذاهب مهذبة والمراتب مرتبة • والأسباب محكمة والأحكام مسببة . والأحوال حالية . والأعمال راضية . والمصالح مصونة . والمناجح مضمونة . والرعية مرعية . والعوائد مرضية والقواعد متأثلة . والمقاصد متحصلة والثغور مسدودة . والخطوب مصدودة . واصول الدولة ثابتة . وفروع الدوحة نابتة . وماترك أمرا بعده غير مستقيم ولانهجا غير قويم ، ولاخلف لمن خلفه مايحتاج الى تقريبه وتقريره . ولاأبقى لمن بقي له مايفتقر الى ترتيبه وتدبيره . وماخرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الامامية داخل ، وبمتجرها الرابح الى دار المقامة راحل . ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها ، والاستكثار من مادتها ، والاستسعاد بسعادتها . والاستعداد لعيادتها ، وما بنيت القواعد الا على اساس وصاياه . ولاأمضيت العوائد الا على قياس سجاياه ، ولاأبرم الا ماعقده ، ولاأحكم الا ماأكده . واقتفيت آثاره، واجتليت أنواره . واتبع ايثاره . وأتمرت في ائتمار الأوامر الشريفة أوامره ، ومن كان في نصرة الدولة الامامية الناصرية فان الله ناصرة . ومايفتخر العبد الا بما ورثه في ولائها من الفخار . وبعثه من الائها الغزار . ونعشه برفعة من العثار . وعرفه بعرفه المبر المبار . ولايتسم بالملك الا من يتسامى بأنه لها مملوك . ولايوصل الى السعادة الأبدية الا مسلك الى رضاها مسلوك ، ولئن مضى الوالد على طاعة امامه ، فالمماليك أولاده وأخوه في مقامه ، والأمر في كل مكان بالأمن والسكون جار على نظامه . والكفر مغلول الغرب . مخذول الحزب . مجبول على الرعب • مغلول بقيد السلم عن الحرب • فان الله أجرى المشركين مع كثرتهم علي حكم القلة ، وخصهم لابقاء عزة الثغور الاسلامية بالذلة ، وقد استمرت الحال الى الآن علي الهدنة ، وهم لايؤمنون اذا احسوا بالمكنة فان الغدر في طباعهم مركوز ، والسوء في

غرائزهم مغروز ، والعبد آخذ بالحزم ، عائذ بتأييد الله في العزم متيقظ لخوف غدرهم متحفظ من مكر مكرمهم ، مستعد بكل امكان ، مستجد كل مايفتقر اليه من نجدة وقوة بكل مكان . مستظهر بما تأكد له من مظاهرة المواقف المقدسة في أموره . مستبشر وجه وجاهته منها بسفوره . ظاهر بقوته من ايدها وأياديها قوي بظهوره . مدل بما له من الموات الأكيدة . والسوابق الحميدة . والشوافع المقبوله . والذرائع الموصولة . وموقن ان الرعاية تدركه . وأن العناية تملكه ، وأن اختصاصة بفضيلة المائة القديمة يجد له فضل الاختصاص . وان فاتحة الحمد منه والاخلاص تفتح له باب الاحماد والاستخلاص، ولما قصر رجاءه على طوله بذلك الطول . وأنه يزداد بما يزدان به من الاصطفاء والاصطناع حسن الحلية وقوة النصرة والحول . عول على القاضي ضياء الدين في المثول بالخدمة الشريفة وانهاء حاله ، والانتهاء الى مناجح آماله . والسفارة فيما يسفر عن صبح المراشد ، ونجح المقاصد ونصح العقائد . وشرح الأحوال في المصادر والموارد . وأن بلاغته وفية بالابلاغ ، وملية باشباع القول في اعتفاء الطول المليء بالاسباغ . وقد فاوضه فيما فوضه اليه . واعتمد في استنجازه واستنجاحه عليه . ولازالت ايادي الدار العزيزة دارة غزيرة . سارة أولياءها وباحياء موات مواتها جديرة ان شاء الله تعالى

ذكر بعض مناقب السلطان رحمه الله

كان مشغوفا في سبيل الله بالانفاق . موقوفا عزمه في الأعداء بادناء الآجال وفي الأولياء باجراء الارزاق . وماعقر في سبيل الله فرس أو جرح الا وعوض مالكه بمثله . وزاده من فضله . وحسب ماوهبه من الخيل العراب والأكاديش الجياد ، للحاضرين معه في صف الجهاد . مدة ثلاث سنين مذ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين الى يوم انفضالهم بالسلم في شعبان سنة ثمان

وثمانين . فكان تقديره اثني عشر الف رأس من حصان وحجر • وأكديش طمر وذلك غير ماأطلقه من المال . في اثمان الخيل المصابة في القتال • ولم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب او موعود به وصاحبه ملازم في طلبه • وماحضر اللقاء الا استعار فرسا فركبه وهجر جياده فاذا نزل جاء صاحبه فاستعاده • فكلهم يركب خيله . ويطلب خيره . وهو يستعير جوادها . ويستعر في الجهاد اجتهادا ، وكان لايلبس الا مايحل لبسه ، وتطيب به نفسه . كالكتان والقطن والصوف .

وكسوته يخرجها في اسداء المعروف . وكانت محاضره مصونة من الخطر . وخلواته مقدسة بالطهر . ومجالسه منزهة من الهزء والهزل . ومحافله حافلة أهلة بأهل الفضل . وما سمعت له قط كلمة تسقط . ولا لفظة فظة تسخط . يغلظ على الكافرين الفاجرين . ويلين للمؤمنين المتقين . ويؤثر سماع الحديث بالأسانيد . وتكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد . وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء . ومشاركة القضاة في القضاء اعلم منهم بالأحكام الشرعية . والأسباب المرضية والأدلة المرعية . وكان من جالسه لا يعلم انه جليس السلطان . بل يعتقد انه جليس اخ من الأخوان . وكان حليما مقيلا للعثرات . متجاوزا عن الهفوات . ذقيا تقيا . وفيا صفيا . يغضي ولا يغضب . ويبشر ولا يتقطب . مارد سائلا ، ولاصد نائلا ، ولا اخجل قائلا . ولا خيب آملا .

ومن جملة مناقبه انه تأخر عنه في بعض سفراته . الأمير ايوب ابن كنان مشتغلا بمهماته . فلما وصل سأله عن سبب تخلفه . وما الذي وقفه عن موقفه . فذكر ان غرماءه لجوا والحوا . وضنوا باطلاقه وشحوا . فأحضر غرماءه وتقبل بالدين وتكفل بالعين . وامرني بأن احيلهم على مصر فحسبتها وهي اثنا عشر الف دينار مصرية وكسر . فقدم ذوابه وفاءها على الحمل لما عرفوا فيه من بغض صون المال وحب البذل للفضل .

ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب اليه سيف الدولة ابن

منقذ من مصر وهو بها نائبه . وقد وضحت في الكفاية مذاهبه ان واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الفي دينار وتسحب . وربما وصل الى الباب وتحيل وتمحل وخيل وكذب . فجاء الى السلطان من اخبره ان الرجل على الباب وخال انه اليه به تقرب . فقال قل له ان ابن منقذ يطلبك فأجهد أن لا تقع في عينه . فعجبنا من حلمه وكرمه بعد ان قلنا قدم الرجل بقدمه الى حينه . ومما اذكره له في أول سفري معه الى مصر سنة اثنتين وسبعين . ووردت بها من فضله العذب المعين أنه حوسب صاحب ديوانه . عما تولاه في زمانه . فكانت سياقة الحساب عليه سبعين الف دينار باقية عليه فما طالبها ولاذكرها . واراه كأنه ماعرفها على ان صاحب الديوان ما اذكرها . وكان يرضى من الأعمال بما يحمل عفوا صفوا . ويحصل عذبا حلوا . وكله يخرج في الجود والجهاد . ورعاية الوفاد والقصاد ثم لم يرض لصاحب ديوانه المذكور بالعطلة . ولم ير انزواءه في بيت العزلة فولاه ديوان جيشه واولاه ما دنت له به مجاني جاهه وعيشه .

ولما كنا بظاهر حران في سنة احدى وثمانين عم بصدقاته الفقراء والمساكين وكتب الى نوابه في الولايات باخراج الصدقات وقال لي اكتب الى الصفي بدمشق ان يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية فقلت له الذهب الذي عنده مصري . قال : فيتصدق بخمسة آلاف مصرية . واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما . ويرتكب في كسب الأجر آثاما . فسمح ومنح وتاجر الله وربح . وسمعت بعد ذلك الصفي . وكان في الخير مجلي كل مضمار يقول قد احصيت فقهاء المدارس بدمشق وكانوا ستمائة فأطلقت لهم ستمائة دينار .

ولما عزم على الرحيل من حران . أفاض بها الفضل وبث الاحسان وقال لي يوم الرحيل . انظركم بقي بالباب من الوافدين ابناء السبيل . وهذه ثلاثمائة دينار اقسمها عليهم بالقلم . وفضل على اقدارهم في القسم . وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة . ولم

تجده ميسره . فعينت لكل اسم قسما . وعنيت بهم خلقا مني ورسما فبلغ اربعمائة دينار . ثم وقفت افكر واردد النظر اليه واكرر فسألني ما الذي عملت . وهل قسمت المبلغ وكملت فقلت جرى قلمي بقسمة اربعمائة دينار . فهل انقص من كل اسم ربعا ؟ فقال اجري ما جرى به القلم واحسن صنعا ،

وكان رحمه الله اذا اطلق لعارف عارفة ، وقلت له هذه ما تكفيه ردها مضاعفة . وكان اصحاب المظالم وارباب المطالب . والراغبون في الرغائب والذاهبون في المذاهب . يحضرون عندي . ويعرفون في انجاز امرهم وانجاح قصدهم بذل جهدي . فأكتب لهم توقيعات بمتوقعاتهم . وانتهي في الاملاء بنهاية مأمولاتهم . فيجريها ويمضيها . ويضع علاماته فيها ويرتضيها . واذا الفى توقيعا بخطي علم فيه . ولم يقف بنشره على سر مطاويه . الفا بما الفه من صحبتي ومناصحتي . وكفاء للملمات وكفاية للمهمات بكفايتي . وكان يأمرني باجابة كتب الملوك واصحاب الأطراف عن كتبهم في حالتي سلمهم وحربهم . وهي تشتمل على اسباب متنوعة وآراب متفرعة . بحسب الحوادث المتجددة ، والبواعث المتمهدة ، فإذا قلت له بماذا اكتب وما الذي اخطب . فيقول انت اعرف . وبحسب ما تعلم من حالنا تتصرف فاكتب من عندي بالاجابة . وتوافق منه الاصابة فقد كنت مطلعا على سره . مضطلعا بأمره ، ما يخفي عني مراده . وانا اتيقن لمن ولاؤه ووداده . فأتي بمداناة الأغراض ومداواة الأعراض وموازنة الجواهر والأعراض . والتمييز بين اهل القبول واهل الأعراض . فكم اصلح قلمي بينه وبين من عاداه . وراض الجامح من سخطه وقاده الى مدى رضاه .

وكان يغضب للكبائر . ولا يغضي عن الصغائر . ويرشد الى الهدى ويهدي الى الرشاد . ويسدد الامر ويأمر بالسداد ، فكان مماليكه وخواصه بل امراؤه واجناده اعف من الزهاد والعباد . ورأى يوما لي دواة . بالفضة محلاة . فاذكر حل الحلية . وادعى حظر القنية . فقلت على سبيل المدافعة . وطريق المناظرة والممانعة .

أوليس تحل حلية السلاح . واستصحابه في الكفاح . فدواء دواتي انجع . ومدد مدادي انفع . ويراع براعتي القصير اطول ، وسلاح قلمي أجذ وأحد وافتك وأقتل ، وما اجتمعت هذه العساكر الاسلامية الا بقلمي ولا تفرقت جموع الكفر الا بكلمها من جوامع كلمي . فقال ما هذا بدليل ولا يعيد تحريما الى تحليل . حتى قلت له ان الشيخ ابا محمد والد الامام ابي المعالي قد ذكر وجها في جوازه ونحن نتبعه فلا وجه مع هذا الوجه المحلل لمن يحظره ويمنعه . ثم لم اكتب بعدها عنده الا من دواة الشبه . وتجنبت طرق الشبه وتركت المحلاة مخلاه . وعادت الشبهية مجتباه مجتناه . وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوائل اوقاتها . مواظبا على اداء مفروضاتها ومسنوناتها . فما رأيته صلى الا في جماعة ولم يؤخر له صلاة من ساعة الى ساعة .

وكان له امام راتب ملازم مواظب . فان غاب يوما صلى به من حضره من اهل العلم . اذا عرفه متقيا متجنبا للاثم . وكنت لملازمتي اياه يقدمني اماما في الصلوات . ومستشارا في المشورات . وكان يأخذ بالشرع ويعطي به . وينفق من حل المال وطيبه . ويجود بالموجود وبالمعدوم في الحال رجاء الوجود . فما تتجدد جدة الا ويستوعبها انجاز الوعود . ولم يكن الى المنجم مصغيا . ولم يزل لقوله ملغيا . فما عنده منجا لمن جاء بمين المنجمين ولا قبول لمنطق المنطقيين . فلا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على زمان الا بتفضيل الشرع واستقصاء الدين في كل قاص ودان . ولا يتعيف ولا يتطير ولا يعين وقتا ولا يتخير . بل اذا عزم توكل على الله . وأقبل على محكم امره واعرض عن مظان الاشتباه . فكم فل سفه ذي الفلسفة . ودل بمعروفه في المعرفة . ومازال ناصرا للتوحيد . قاهرا جمع اهل البدع بالتبديد . مستجليا سنى السنه . مستحليا جنى الجنه . شافعي المذهب اصولا وفروعا . معتقدا له معقولا ومسموعا يدني أهل التنزيه . ويقصي اهل التشبيه . ويديم استفادة فقه الفقيه . واستزادة نباهة النبيه . ووجاهة الوجيه . فالعالمون في عدله . والعاملون في فضله والبلاد في امنه . والعباد في منه . والبرية

في برسعيه . والاسلام في حمـــاية حميتـــه . والدين في ادالة دولتـــه . وشرعة الشريعة صافية بصفائه . ومـــادة الدولة له وافية بـــوفائه . وقامت بعده طريرة طريه . ومـــن العـــار عريه ، وببر البـــرية مـــن الشائبات والشائنات بريه . وبالحرية حرية . وبسرور السر سريه . فقد عزت وفضلت وظهرت بعزيزها وافضـــلها وظـــاهرها، وفخـــرت بمفاخرها . ورويت بروائهم آثار مآثرها ، وتبجلت الآفاق وتأرجت بحسن تباشيرها وطيب بشائرها ، وبرزت الأرض في ازهارها ، والسماء في زواهرها . والحمـــد لله مجـــري الأقـــدار ومصـــــفي الاكدار ، ومدبر الليل والنهار ، ومدبر الايراد والاصـــدار ، وســـلم تسليما كثيرا آمين

obeikandl.com

- ٦٢٣٧ -

الحواشي والهوامش

البرق الشامي

(١) مطموس بالأصل .
(٢) موقع ما يعرف اليوم باسم نبع السريا في حوران الذي تشرب منه بلدة الشيخ مسكين .
(٣) مطموس بالأصل

(٤) ريموند الثالث صاحب طرابلس .
(٥) طمس بالأصل بثلاثة اسطر .
(٦) مطموس بالأصل .
(٧) النسخة التي اعتمدت عليها هي نسخة وحيدة لايعلم الآن مكان وجودها ، سوى أنه سبق للمرحوم المختار السوسي ان أودع عنها شريطا مصورا في الخزانة العامة بالرباط . وقد لحق النسخة بعض الطمس ، وخطها مغربي من الصعب التعامل معه ، وهذا الحال اضاف لي لفة العماد معوقات وعراقيل جعلتني رغم ما بذلته من جهد غير مطمئن تمام الاطمئنان . وقد اكتفيت بهذا النص كنموذج ، وفيما وجد ابو شامة ـ صاحب الروضتين ـ التعامل مع البرق الشامي أمرا صعبا ، ولعله لم يكن قادرا على قراءة النص الكامل للكتاب أو وجد قلة الفائدة في ذلك لهذا اقتبس منه بضع فقرات من هنا وهناك ـ انظر الروضتين : ٢ ، ٧٤ ـ ٨٢ . وخيرا فعل الفتح البنداري فيما بعد حين أقدم على تهذيب بعض كتب العماد ، وكان منها البرق الشامي هذا .

(الفتح القسي)

١ ـ الحيعلة : قولك حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، القاموس
٢ ـ الوحش : الردىء من كل شيء ، ورذال الناس ، القاموس .
٣ ـ كرثة الفم : اشتد عليه ، القاموس .
٤ ـ طفر : قفز ، القاموس
٥ ـ الد أماء : البحر ، القاموس .
٦ ـ النهيت : الزئير . القاموس .
٧ ـ سحابة دلوح : كثيرة الماء ، القاموس .
٨ ـ الريح تحركت فهي ذؤوج ، وللريح نئيج : اي مر سريع ، القاموس .
٩ ـ بلخ : تكبر ، القاموس .
١٠ ـ بظاهر بلدة نوى في حوران سورية
١١ ـ في وادي الأردن قرب عقبة أفيق .
١٢ ـ الأوام : الدخان ، القاموس .
١٣ ـ السلت : القطع والاستئصال .
١٤ ـ ابن بارزان هو بالين صاحب يبنى ، والقومص هو ريموند الثالث صاحب طرابلس .
١٥ ـ البيكار فارسي معرب يعني الحرب .
١٦ ـ يقق ، ابيض القاموس .
١٧ ـ طحرت العين : قذاها ، القاموس .
١٨ ـ اي تنعدم الاقوات فيها .
١٩ ـ الأمره : الأبيض ، القاموس .
٢٠ ـ اي بحيرة قطينة خارج مدينة حمص .
٢١ ـ حامت : شديد الحلاوة ، القاموس .
٢٢ ـ الأطعمة التفهة : ماليس لها طعم حلاوة أو حموضة أو مرارة ، القاموس .
٢٣ ـ المدنر : فرس فيه نكت فوق البرش ، القاموس .
٢٤ ـ السمند : الفرس ، والغبسة : الظلمة أو بياض فيه كدرة رماد ، القاموس .
٢٥ ـ الشوار : اللباس والسمن والزينة ، القاموس .
٢٦ ـ الحلاحل : السيد الشجاع ، القاموس .
٢٧ ـ الحصن : حلق الشعر ، القاموس .
٢٨ ـ العنق سير فيه تبختر والذميل السير اللين ماكان فوق العنق ، القاموس .
٢٩ ـ الأرى العسل ، القاموس .
٣٠ ـ لثق يومنا : ركدت رمحة وكثر نداه ، القاموس .
٣١ ـ الأوام : العطش ، القاموس .
٣٢ ـ أمهى السمن والشراب : أكثر ماءه ، وأمهى الحديدة : أحدها وسقاها الماء ، القاموس .
٣٣ ـ انعط العود : تثني من غير كسر ، القاموس .
٣٤ ـ اللوب : العطش ، أو استدارة الحائم حول الماء وهو عطشان لايصل اليه ، القاموس .
٣٥ ـ أبهى الخيل : عطلها من الغزو ، والباهي من البيوت : الخالي المعطل ، القاموس .

٣٦ ـ الضفو : السبوغ والكثرة وفيضان الحوض ، القاموس .
٣٧ ـ رجل نيق : كيس ، والنيق : أرفع موضع بالجبل ، القاموس .
٣٨ ـ السونتيق : الصقر أو الشاهين ، القاموس .
٣٩ ـ تتفل : أزبد ، القاموس .
٤٠ ـ حدمة النار : شدة اشتعالها ، القاموس .
٤١ ـ خطا لحمه : اكتنز ، القاموس .
٤٢ ـ باركاه : فارسية تعني خيمة ملكية ، أو جناح استقبال ملكي .
٤٣ ـ كذا بالأصل وهو وهم فلعله أراد قوله تعالى « كذلك نجزي كل كفور » (فاطر٣٦) ولم يرد قوله جل وعلا « كذلك نجزي من شكر » (القمر ٣٥)
٤٤ ـ الكتهور من السحاب قطع كالجبال ، أو المتراكم منه ، القاموس .
٤٥ ـ السني : ضوء البرق والنار ، والسنور : الدروع أو السلاح . القاموس اللسان .
٤٦ ـ اي الثغرية أو الحدودية .
٤٧ ـ الغرب : النشاط والتمادي والحدة ، القاموس .
٤٨ ـ السنور جملة السلاح ، القاموس .
٤٩ ـ الدأماء : البحر ، القاموس .
٥٠ ـ الجماء : الغفير.النهاية لابن الأثير .
٥١ ـ التأريث : الاغراء بين القوم وايقاد النار ، القاموس .
٥٢ ـ القونس : مايوضع على أعلى الرأس ، القاموس .
٥٣ ـ التامور : علقة القلب ودمه ، النهاية لابن الأثير .
٥٤ ـ الوج : القطا والنعام ، القاموس .
٥٥ ـ حزا : خمن أوحزر وقدر ، القاموس .
٥٦ ـ ضبر : وثب ، القاموس .
٥٧ ـ الدشق : السرعة في الطعن والضرب ، القاموس .
٥٨ ـ الزغفة : الدرع اللينة الواسعة المحكمة ، أو الرقيقة الحسنة السلاسل ، القاموس .